

الْعِلَامُ مِنَ الْأَذَّفَاءِ وَالْمُجَاهِدُ



كَعْبَ بْنَ زَهَيْرَ

جَيَاةُ وَشِعْرُهُ

إعداد

مُحَمَّدٌ عَلَى الصَّبَاعِ

ما جئني في اللغة العربية وأراها

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العلماء من الأدباء والشعراء

كتاب عبد الله بن نميره
حياته وشعره

إعداد
محمد علي الصباع
ما جنت في اللغة العربية قارئاً

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١ - ١٩٩٠ م

طلبته من: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
مرتب: ١١/٩٨٦٢، متلخص: Nasher 41245 Le
هاتف: ٢٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

مقدمة

كعب بن زهير، أحد فحول الشعراء المخضرمين، عَدَّه ابن سلَام من شعراء الطبقة الثانية ووضعه قبل الحُطْيَة.

كان في مقتبل العمر عند ظهور الدعوة الإسلامية، شاب مَفْتَدٌ بنفسه وبشاعريته، فخور بقومه وأهله، وخاصة والده زهير بن أبي سلمى، الذي ملا صيته البوادي، وشغل الوبر والحضر، وتغنت بحولياته^(١) الركبان.

لم يتقبل كعب الدين الجديد بسهولة، لا بل ناصبه العداء، حتى إذا ما أعلن أخوه بجير إسلامه، وعلم كعب بخبره، أرسل إليه أبياته الشهيرة يسخر بها منه ويبحثه فيها على ترك الإسلام والعودة عنه إلى دينه القديم، والتي بسببها أهدر الرسول ﷺ دمه.

وظل كعب على وثنيته حتى فتحت مكة، وانصرف الرسول ﷺ من الطائف، فكتب إليه أخوه بجير أن النبي ﷺ قتل كل من آذاه من الشعراء المشركين إلا من أعلن إسلامه، ودعاه أن يقدم على رسول الله ثانيةً، وكان أن شرح الله صدره

(١) اشعاره التي كان ينظمها وينفعها في حول «عام» كامل كما يقال.

لإسلام، فقدم المدينة وبaidu الرسول ﷺ واعلن إسلامه.
منشداً بين يديه مدحته الشهيرة الخالدة، فكساه النبي ﷺ
بردته، التي اكتسى بها كعب حلة مجيد لا تُبلِّى على مرّ
العصور، ولُقِّبَتْ قصيده «بالبردة»؛ كما عُرِفت القصائد التي
عارضتها ونهجت نهجها «بنهج البردة».

وهكذا حسن اسلام كعب، فاتخذ من الرسول جاراً أو
ملاذاً، كما أصبح من الصحابة الابرار، فصفت نفسه، وأخذ
يستشعر معاني الإسلام الروحية، وما دعا إليه من الخلق
الكريم، بعد ما كنا نراه دائماً في شعره الجاهلي مفاحراً
متوعداً مهدداً، في نفسه شر كثير، كما يدل عليه ديوانه
وتأخره في إسلامه.

وبعد، فإننا نضع بين يدي القاريء حياة كعب وشعره
آملين أن يستشعر فيما الروح الإسلامية التي غيرت كعباً
وحولته إلى إنسان فيه كثير من الحكمة والصبر والتلطف.

النبطية ٦ / ١٢ / ١٩٨٨

محمد علي الصبّاح

لمحة تاريخية عن ديار العرب قبل الاسلام

إذا قيل ديار العرب تبادرت فوراً إلى الذهن خيالات الجزيرة العربية، تلك المنطقة الصحراوية العارية إلا من كثبان الرمل وحرارة الشمس، ومع أنه كان لقوم منهم مواطن في البلاد الشامية والعراقية، كالغساسنة والمناذرة، إلا أن هذه الربوع على جمالها وتحضر بعضها، لم تكن تمثل إلا جزءاً يسيراً من ديارهم بالنسبة إلى الجزيرة العربية الواسعة الأرجاء، فالجزيرة هي مهدعروبة الخالصة، وكل عربي أصيل، يتعمى إليها، وإن بعدهت به الدار عنها وشط المزار.

وسميت جزيرة مع إن البحر لا يكتنفها إلا من نواحي ثلاثة، وذلك من قبيل التوسع، وكان بالأحرى أن تسمى شبه الجزيرة العربية، فالبحر الأحمر يحيط بها من الغرب، ومن الشرق الخليج العربي أو الخليج الفارسي أو خليج العجم، كما يحلو للبعض أن يسميه، ومن الجنوب المحيط الهندي، وأما الشمال فإنه متصل بأرض الشام والعراق.

والجزيرة العربية خمسة أقسام: القسم الأول اليمَن في الجنوب ويقال لها الخضراء أو السعيدة، لما فيها من المزارع

والأشجار والمراعي والمياه، وتقسم اليمن بدورها إلى خمسة أصناف^(١)، وهي حضرموت، ومهرة، والشّحر، وعُمان، ونجران. ومن مدنها الشهيرة صنعاء، وكانت سرير^(٢) ملوك اليمن، وفيها قصر غُمدان؛ ومدينة مأرب ويُقال لها سباً وفيها العَرم، وزبيدة، وعَدَن، وظفار قاعدة بلاد الشّحر.

والقسم الثاني: الغُرُوض، وسميت كذلك لاعتراضها بين اليمن ونجد، وتشمل كلاً من البحرين واليمامة.

والقسم الثالث: تهامة، وتقع على شاطئ البحر الأحمر، بين اليمن والحجاز، وفيها طريق القوافل إلى الشام. ومن مُدُنها مكة وفيها البيت والكعبة وغار حراء.

القسم الرابع: الحجاز، بين نجد وتهامة، أشهر مدنه يثرب، التي أصبحت فيما بعد مدينة الرسول صلوة، والطائف، وخبيث، وفيه سوق عُكاظ، وماء بذر.

والقسم الخامس: نجد، وهو صَفْع مرتفع، طيب الهواء، لهج بذكه الشعراة، ويقع فيه «أرض العالية» التي كان يحميها كليب. ويقع هذا القسم بين العراق شرقاً، وبادية الشام شمالاً، والحجاز غرباً، واليمامة جنوباً.

(١) مفردها صفع، وهو قسم من الأرض.

(٢) عاصمة الملك.

وفي الجزيرة جبال وأودية وصحراء وحُرَّات^(١). فمن جبالها أجاً وسلمى في جنوب بادية السماوة؛ وهما منازلبني طيء؛ ورضوى بالقرب من يَمْبَع، وأحد في شمالي يثرب، وأبو قبيس في شرقى مكة، وأبان الأبيض في شمالي وادى الرُّمَة. ومن أوديتها وادى القرى بالقرب من يثرب، ووادى الرُّمَة بعلية نجد، ومن بواديها بادية السماوة، وهي عبارة عن رمال وغض^(٢) يصعب فيها السير بسبب نعومة رمالها حيث تغيب فيها الأقدام. هذا بالإضافة إلى قلة الماء والكلأ؛ والدهماء وهي عبارة عن سبعة جبال من الرمل بين يبرين وفید، ويبرين هذه رمال كثيرة بين اليمامة والبحرين، وفید بلدة صغيرة تقع في منتصف الطريق بين مكة والكوفة؛ وهي كثيرة المراعي رغم قلة الماء. قال عنها ياقوت الحموي: «إذا أخصبت الدهماء، ربعت العرب جمعاء». ورمال الأحقاف بأرض اليمن بين عمان وحضرموت. ومن حُرَّاتها، حرة^(٣) سليم في عالية نجد، وحرة واقم شرقي يثرب، وفيها كان يوم الحرة في خلافة يزيد بن معاوية، حيث انتهب فيه عسكُر الشام المدينة سنة ثلاثة وستين هجرية.

ومناخ الجزيرة يختلف باختلاف ارتفاعها وانبساطها، ففي

(١) مفردتها حرة وهي أرض بركانية سوداء اللون، ذات حجارة سود كأنها أحمرت.

(٢) أي لينة ناعمة، تغيب فيها الأرجل.

(٣) وهي أرض ذات حجارة سود كأنها أحمرت.

الجبال وعلى شاطئه البحر الجنوبي فهو معتدل، وفي السهول حارٌ، كما تهب ريح محرقة من الجنوب والغرب تعرف بريح السموم. وبهطل المطر شرقي اليمن وشمالها ابتداءً من حزيران إلى تشرين الثاني، وتكثر الأمطار في حضرموت في فصل الربيع، وأما الأقاليم الشمالية فهي قليلة الأمطار، قليلة المياه، لا تنبت العشب ولا الشجر إلا في بعض الأماكن، وأكثر شجرها شائك لظمنه إلى الماء، ويشتند البرد والصقيع إذا احتبس المطر، وثارت الربيع من ناحية الشام وهي رياح تهب من الشمال تنذر البدوي بالبرد والقطن والجوع، ومنها أشتق الشاوم، حتى إذا أفلعت خفَّ القرُّ. وتهب الربيع اليمنية رخاء، تبشر بقدوم المطر والربيع والشبع ومنها أشتق التيمن، وصار الأعرابي يتظير بكل ما يأتيه من ناحية الشمال - عن شماله - . وكان الشمال موطن العرب العدنانية الذين يعودون بنسبهم إلى إسماعيل بن إبراهيم من جاريته هاجر، وهو من العرب المستعربة. كما كان الجنوب موطن العرب القحطانية، الذين يرجعون بنسبهم إلى يعرب بن قحطان وأولاده، وهذا لا يعني أن الشمال استأثر بالعدنانية وحدها، بل اتخذ بعض قبائلها الجنوب موطنًا لها، وكذلك أطراف الشام والعراق.

كما غلبت البداوة الخشنة وسكن الخيام على عرب الشمال، فكان العدنانيون في كثرتهم بدواً رُحْلاً لا يأنسون بقرية، ولا يسكنون بيتاً معموراً، إلا أقلمهم كبني قريش في مكة، وبني ثقيف في الطائف. على أن هؤلاء البدو الجفاة هم الذين أبتو فحول الشعراً، وجاءنا عنهم الشعر الكثير.

مَكْتَبَةُ لِسَانُ الْعَرَبِ



أ. علاء الدين شوقي

رابط بديل
lisanerab.com

www.lisanarb.com

أحوال العرب الاجتماعية في الجاهلية

ُعرف الشعر الجاهلي بأنه ديوان العرب لاشتماله على أخبارهم، وسائل أحوالهم، فجدير بنا، ونحن نمهد لدراسة هذا الشعر بصورة عامة، ودراسة شعر كعب بن زهير بصورة خاصة، أن نمهد بلمحة تاريخية، وأن نلّمُ بأخلاق القوم وصفاتهم، وما لهم من عادات وتقاليد، وما يعتقدون من عقائد ونظم وعلوم؛ فإن هذا الالامام يساعد على دراسة شعرهم واستجلاء مراميه.

شخصية البدوي وأخلاقه: للبدوي شخصية قوية تظهر بأنانيته، وجبه الخير لنفسه دون غيره، والاستئثار بالجاه والمذكر الحسن والصفات الحميدة. ونزوعه إلى الحرية والاستقلال، وتظهر في جلده وصبره على الفقر والجوع والظلماء ومحاباة الطبيعة في صحرائه القاسية العاتية، هذه الصحراء التي لفتحها بحرها فتركه أسم اللون يابس الجلد خفيف اللحم، أسود العينين والشعر، واستولت على إحساسه بوحشتها، فجعلته حاد السمع والبصر سريع التأثر، متور الأعصاب، مذعنًا للقضاء والقدر، وصيرته بشحها

وبخلها وقطنها كريماً مقداماً يُقْرِي الضيوف ويمنع الجار،
 وينجذب الملهوف، حتى أصبح حب القرى وحسن الجوار من
 طبائعه، يُفاخر بها، ويرى أنه من العار عليه ألا يكرم الضيف
 ويحمي الجار. ولم تكن الصحراء العربية سخية ولا رحيمة
 بأهلها، كما لم يكن أهلها رحماء بينهم ولا متناصفين.
 فالحياة عندهم تقوم على التنافس الشديد، والعنف الذي لا
 هواة فيه، والقسوة التي لا تلين، والقارئ لشعرهم وأثارهم
 يستطيع أن يرى بوضوح أن القوة في كل صورها هي المثل
 الأعلى الوحيد الذي آمنوا به وحرصوا عليه. فكل ما نالته يد
 القوي فهو حق له. الفضيلة عندهم هي الرجولة،
 والشجاعة، والاقدام، وركوب المخاطر والاهوال، والتجلد
 لل GK والخطوب. للقوى صفة الحياة ومتاعها، وللضعف
 الفضل والعفو. فالضعف في كل مظاهره هو الجريمة^(١)
 الوحيدة التي يعيّر بها الرجل، ويدوّق من جرائحتها الهون^(٢)
 والنكال^(٣). لم يكن بينهم للخيرين الوادعين مكان. وإنما
 كان المكان الأول للظالم الغاشم، الذي يتزعزع نصيه انتزاعاً
 من معرك الحياة جريحاً مقداماً، ويستخلصه عزيزاً مقتداً.

(١) الذنب.

(٢) الذلة.

(٣) العقاب أو النازلة.

يغير النفر القوي على النفر الضعيف، فيجلبه عن الماء، ويغصبه ماله وإبله ومتاعه ويخلقه على نسائه. يرد القوي الماء فيشرب صفوته ويستطرع الضعيف خلو المورد، قانعاً بالطين والكدر. ويقضي القوي الأمر، والضعيف مختلف لا تصفي له أذن، ولا يقام لرأيه وزن. فأهل الجاهلية من العرب، والبدو منهم خاصة لا يحقرن الظالم لظلمه، ولكنهم يعيرون المظلوم لضعفه، وهم قوم لا يسألون الضارب لم ضربت، ولكنهم يسألون الباكى لم بكيت. وهم لا ينظرون إلى المغتصب هذه النظرة المهينة التي نرمق بها اللص وقاطع الطريق. ولكنهم ينظرون إليه نظرة البطولة والإعجاب، ما دام يسعى جهراً، ولا يدب ديباً، ويترسّر متزاوراً. ولم يكن يستغث بالسلطان منهم إلا الضعيف العاجز.

الحياة القبلية: كانت الأعراب في الباادية تعيش قبائل متقاطعة، لا يجتمع بعضها إلى بعض إلا في حلفٍ موقوتٍ. فلم يستطيعوا أن ينشؤوا في صحرائهم مجتمعاً راقياً، وقومية شاملة، أو دولة قوية موحدة ذات منعة، وكان بين الفرد والقبيلة صلةٌ متباعدةٌ مكينةٌ تجعل الفرد بكليته للقبيلة، كما تجعل القبيلة بكليتها للفرد، حتى إذا نزل عارٌ بالقبيلة أصاب كل فرد منها، وإذا نَبَّهَ ذكر فرد في قبيلة عاد فخره إلى القبيلة

بأسرها، وكانت القبيلة تتحمل جنابة ووزر كل فرد فيها، وتنتصره ظالماً كان أو مظلوماً. وقد يُتفق أن تخلي القبيلة من تكثير معراها^(١) أؤمن لا تستطيع حمايتها، فيلجأ إلى قبيلة أخرى، أو يعيش عيشة الصعاليك المشردين.

سيد القبيلة: والبدوي انطلاقاً من استقلاله القبلي ينكر سيطرة الغريب عليه، ولا يقبلها إلاً مكرهاً، حتى إذا أصاب فرصه انقض عليه وأزاله، كما انقض بنو أسد على الملك الكندي^(٢)، وعمرو بن كلثوم على عمرو بن هند. ولكنهم يذعنون لسيد منهم، إذا رأوا في سعادته خيراً لهم، فكان لكل قبيلة سيدها يجمع شملها ويقودها في الملمات العصيبة. والسيادة لا تستقر طويلاً في بيت واحد وذلك للأنانية الموجودة في نفس الأعرابي، وزروعه الدائم إلى المنافسة، إذ لا شيء يمتع نفس البدوي مثل هذا التبدل المتواتي في الرؤساء، فإنه يقطع بذلك تلك الوتيرة الواحدة التي تجري عليها الحياة في الصحراء، فكانت السيادة تنتقل في القبيلة الواحدة من بيت إلى آخر وقلما تعددت في بيت واحد، وهم مع ذلك متنافسون فيها، وكلَّ أن يُسلِّم أحدهم الأمر لغيره، ولو كان أباً، أو أخيه، أو كبير عشيرته، إلاً في الأقل النادر،

(١) سباته.

(٢) عمرو بن حجر.

فيتعدد الحكماء منهم والأمراء، وكان تعدادها من مفاسخهم.
واشرف البيوت عندهم بيت تابع في رئاسته آباء ثلاثة، ثم
أتصلت بالرابع، فيسمى الكامل، والبدوي في عنجهيته وحبه
للرئاسة لا يخضع لمن هو في مسواه، وإنما يخضع لمن هو
أقوى منه، وعلى الرئيس أن يتخلص بصفات محمودة، لتتحقق له
السيادة في قبيلته، وكانت من أجل هذه الصفات، الغنى والكرم
والحلم والشجاعة والفصاحة. كما احبت العرب بالرجل الحفة
والنشاط، لذلك كرهت فيه أن يكون سميناً مكتبراً، لأنهم رأوا
في السمن والاكتناز آثار النعمة والترف، والركون إلى الكسل
والخمول والدعة. وأحبوا فيه أن يكون نحيلآ خفيف اللحم، من
أثر السهر، وسرى الليل وسير النهار، واقتحام الأهوال، وطيّ
الرماد، والصبر على المكاره ساعة النزال.

المرأة: وعكس هذه الصورة التي أحبوها في الرجل كان
يُستحب في المرأة. كانوا يصورونها وقد تراكم عليها اللحم
والشحم، فهي لا تكاد تقوى على حمل جسمها. وكانوا
يررون أن هذا السمن مظهر الترف والنعمـة. فالمرأة المترفة
يحميها رجل قوي، يستطيع أن يدفع عنها كل عدوان،
ويكفيها أن تمتنهن وتهان، ويجلب لها الثروة والمـال من كل
مكان. كما أحبوا أن تكون بيضاء اللون، سوداء الشعر،

مديدة القامة، دقيقة الخصر، عظيمة الأرداف، لها وجه ناعم
 مصقول، وشعر حalk مفتول، وحاجبان دقيقان مقوسان،
 وعينان كمثل عيون الظبي ^(١)، وفم رقيق صغير، وشفتان
 حمراءان كالورد، وعنق ناهضة بيضاء، وصدر واسع عريض
 فيه ثديان نافران صلبان، وردد ثقيل قائم كالكثيب من
 الرمل، وفخذان أبيضان، وساقان ممتلئان . . . والبدوي ينظر
 إلى المرأة كأدأة للذلة والنسل يريد منها أن تلد له غلمناناً ينافس
 بهم غيره من الناس، والمنافسة بكلة البنين من عاداتهم لأن
 الصبي يُرجى للذود ^(٢) عن الحمى ^(٣)، وإحياء الذكر، وبه
 يتسلسل النسب، فكانوا يكرهون ولادة البنت، وربما تشاءموا
 بها فوادوها، وعرف الواد في قبائل العرب قاطبة، بيد أنه لم
 يكن شاملًا، حتى جاء الإسلام فأنبله. ولقد بلغ من تمكّن
 صورة الشراسة والعنف في نفوسهم وقتذاك، أنهم كانوا
 يزعمون أن المرأة إذا حملت، وهي مكرهة على ذلك، كان
 ابنها أنجب. ولهذا كان الرجل منهم إذا أراد أن ينجب من
 زوجته أغضبها. وهم يقولون في ذلك (إن ولد المذعورة لا
 يطاق). وكان يهمهم تزويج الحرة البيضاء، لأنها كانت

(١) بقر الوحش.

(٢) للدفاع.

(٣) عن الديار أو الوطن.

عرضة للسي، فإذا صارت في كنف زوج، وضمها حماه، كانت غلا^(١) في عنقه. وقد تُخِير الفتاة في أمر زواجها إذا كانت فطنة رشيدة. وكان البدو يتزوجون صغاراً نظراً لطبيعة أرضهم ومناخها ولرغبتهم في البنين. فكان الفتى منهم يتزوج في الخامسة عشرة، والفتاة في العاشرة وربما قبل بلوغ هذا السن. وكانوا يرغبون في زواج البعاد ليتألفوا اعداءهم بالمشاهدة، ويكثرروا الأحلاف، وهم إلى ذلك يعتقدون أنه أنجب للولد وأبهى للخلق، كما كانوا يجتبنون زواج الأهل والأقارب، ويرونه مضرأ بخلق الولد ونجابته.

ويخطب البدوي إلى الآخر ابنته، فيصدقها ثم يعقد له عليها. وله حق تعدد الزوجات مقدار طاقته، إلا إذا اشترطت المرأة عليه عدم التعدد، وتعاقدا عليه، وكانت لا يجمعون في الزواج بين الاختين، ولا بين المرأة وابنتها، ولكنهم استحلوا زواج امرأة الأب، فأبطله الإسلام، وسماه زواج المقت لأنه ممقوت. وربما تزوج بعضهم نساء بعض في غاراتهم وغزوائهم بلا عقد، أو ربما ذهبت المرأة إلى معاشرة عدة رجال في وقت واحد، ف يأتي الولد لا يدرى منْ أبوه، فتلحقه أمه بمن تريده من الرجال الذين عرفتهم، ولا يرفضه

(١) فبدأ.

الرجل وخاصة إذا كان ذكرًا، أو يلحوظون إلى القبافة^(١) ويتحققون بأقربهم إليه شبهًا. كما كانوا يفاخرون بالولد إذا كانت أمه حرة بيضاء زاكية الأصل، ويسمونها أم البنين إذا ولدت ثلاثة أو أربعة من الذكور أو أكثر، ويفاخرون بالأحوال، ويشهون الأولاد بهم دلالة على النسب العُرُّ، أمًا الأمة ف تكون على الغالب سوداء، ولا يُعرف بأبنائها إلا بعد أن تظهر نجابتهم، كما كان للزوج عندهم حق الطلاق دون المرأة، إلا إذا هي اشترطته في عقد الزواج، وكان يحق للزوج أن يسترجع امرأته بعد تطليقها ثلاثة، وإذا أرادت المرأة تطليق زوجها حُولت باب بيتها (خيمتها) إلى الجهة المقابلة، فيعلم عندئذ زوجها أنها طلقته، فلا يجوز له بعد ذلك دخول خيانتها، وكانت إذا مات زوجها تربصت سنة معتدة^(٢) لا تخرج من بيتها، ولا تمس ماء، ولا تُقلم ظفراً، حتى إذا استكملت عدتها خرجت على الناس بأقيع منظر واقدره. والعدة للمرأة هي انتظار ليعلم فيها هل المرأة حامل من زوجها المتوفى أو لا. وكانت نساء العرب يصحبن رجالهن إلى الحرب فيحضضنهم على الصبر في مواقف القتال، ويعنعنهم أن يلوذوا بالفرار، كما كانوا يداوين الجرحى، ويقدمن لهم الزاد

(١) معرفة نسب الولد من خلال أعضائه وهبته.

(٢) جعل الإسلام عدة المرأة أربعة أشهر وعشرين.

والماء ويطعنون الجناد. وللمرأة حق الجوار كما للرجل، وعلى الرجل أن يحمي امرأته واخته وأمه وجارته كما يحمي جاره هو.

كما عُرفَ منهن غير واحدة بالشجاعة، والفصاحة وقول الشعر، وحسن الرأي والحكمة والعرفة. ولكنهن كنْ مُستضعفات في الجملة يحتقر الرجال مكانهن، ويتشاءمون بولادتهن، ويسيئون الظن بأخلاقهن، فينعتونهن بالكيد والمكر والخيانة والخداع.

غزواتهم: كان للعرب حروب كثيرة في جاهليتهم، أو قبل هي غزوات غير منظمة، ومن عاداتهم أن يجعلوا من أيامها مادة لفخرهم، وإخزاء أعدائهم، وكثيراً ما كانت تقع من أجل النهب والسلب أو المزاحمة على الماء والكلأ، أو لأسباب تافهة، كحرب البسوس التي نشببت لمقتل ناقة من الإبل، وكان الدافع إليها الحفاظ على الجوار؛ وحرب داحس والغبراء^(١) التي أفضى إليها التنافس في الرهان بين سيدى القبيلتين. وربما وقعت الحرب لدفع عدو غريب كحرب ذي قار التي جرت بين الفرس وبيني بكر، وحروب اليمن والاحباش وهذا النوع من الحروب نادر، وإنما كانت حروبهم في الغالب

(١) اسمها حسان وفرس.

داخلية قبلية، حتى إذا ما خرجن بها عن شبه جزيرتهم فالي تخوم العراق والشام ليتقاتلوا نيابة عن كسرى وقيصر. وكان البدوي يتحامى القتل جده، لأن تقاليدهم تقضي بأخذ الثار أو دفع الدييات الثقيلة؛ وقد لا تغسل الدييات الأحقاد، لما في قبولها وترك نداء الدم من غضاضة، ثم لاعتقادهم أنه إذا قتل الرجل منهم، ولم يؤخذ بثاره، خرج من رأسه طائر يشبه البوه يسمعونه الهامة أو الصدى، فلا يزال يصبح، اسقوني! اسقوني! حتى يُقتل القاتل أو أحد أقاربه، فشرعية أخذ الثار خففت حوادث القتل وفرضت على المورث أن يحرم على نفسه أحب الأشياء إليه كالنساء والخمر والعسل والطيب، لا تحل له هذه الأشياء إلا بعد أن يأخذ بثاره. ولم تعرف القبائل الجيوش المنظمة، بل كانت جيوشهم عبارة عن أشتات يقودها سيد القبيلة أو من ينوب عنه. وكان من عادة القبيلة أن تشرك كلها في الحرب للدفاع عن مالها ونسائها وأولادها؛ وقلما عرفوا قتال الزحف والثبات، بل كان الفُرُّ في حروبهم ملازماً للكر، وكان سلاحهم السيف والرمح والقوس والمِجن^(١)، ويلبس فرسانهم الدروع والمعافر^(٢). وكانوا

(١) الترس.

(٢) جمع مغفر أو هي مغفرة: زرد يُسجع من الدروع على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.

يرفعون الرايات، ويتغنون بالشعر ويرتجون محسين
أنفسهم، حتى إذا تم لهم النصر، عادوا بالأسلاب والسبايا
فاقتسموها فيما بينهم، وأما الأسرى فمصيرهم إلى القتل أو
يقدموا الفداء، ولا يطلقون الأسرى إلا بعد أن يجزوا
نواصيهم^(١)، إمعاناً بإذلالهم.

معايشهم: كان عرب الbadia يعتمدون في عيشهم على
رعاية الماشية، ثم على الغزو والصيد والقنص وحراسة
القوافل. وأما أهل الحضر فإن وسائل الرزق كانت أوفر
لديهم، فقد عرفوا أركان الحضارة وال عمران الثلاثة وهي:
التجارة والزراعة والصناعة. وكانت اليمن في مقدمة البلاد
العربية تحضراً وخصباً، فانبسطت تجارتها، ونمّت زراعتها،
وتواتفت لها الصنائع المختلفة ولا سيما الوشي والحياة.
وعرب الشمال رغم بدواوتهم وخشونة عيشهم فإنهم لم يُحرموا
نعمـة التجارة في حواضـرـهمـ، فقد كانت مكة في تـوـسـطـهاـ
الـطـبـيـعـيـ وـمـقـامـهـ الـدـينـيـ، محطة لـقوـافـلـ الـيـمـنـ وـالـشـامـ، وـسـوقـاـ
تجاريـاـ رـاجـحةـ تـُـعـرـضـ فـيـهاـ بـضـائـعـ التـجـارـ. وـاشـتـهـرـ أـهـلـهـاـ
بـرـحـلـاتـهـمـ التـجـارـيـةـ، فـكـانـتـ لـهـمـ رـحـلـتـانـ فـيـ السـنـةـ: رـحـلـةـ
الـشـتـاءـ، وـرـحـلـةـ الصـيفـ إـلـىـ كـلـ مـنـ الشـامـ وـالـيـمـنـ. كـمـ أـنـ

(١) جمع ناصبة وهي مقدمة شعر الرأس.

أهل يثرب عرّفوا التجارة ولا سيما اليهود منهم. وكانت لهم أسواق تُقام في أوقات معلومة للبيع والشراء، أعظمها سوق عكاظ. وكان عرب العيادة يتجررون مع الفرس، ويتوّلون حماية قوافلهم في عرض القفار.

وكان للزراعة شأن في بعض الحواضر الشمالية كالطائف ويشرب وخبير ووادي القرى وتيماء. أمّا الصناعة فإن الاعراب كانوا يحتقرنها ويعيرون صاحبها. فهم أبعد الناس عنها. ومع ذلك فقد ألموا بأشياء منها كالحدادة والنجراء والخياطة والصياغة، وكانت هذه الصناعات في القرى المعمورة كمكة ويشرب والطائف.

أديانهم: وكان العرب في جاهليتهم على أديان مختلفة، ومذاهب متعددة، يؤلهون الأصنام والكواكب، ويعبدون الله، ويخلطون المذاهب بعضها ببعض، مازجين التوحيد بالشرك، والعقائد السماوية بالعقائد الوثنية. وهم إلى ذلك ليسوا على دين ثابت أو عقيدة مكينة، شأنهم في ذلك شأن حياتهم المتنقلة المضطربة. وكانت الوثنية في القبائل أعم وأكثر انتشاراً، والأصنام منصوبة في كل ناحية من نواحي الجزيرة، ولا سيما الكعبة، وتزعم الرواية العربية أن أول من دعا إلى عبادة الأصنام هو عمرو بن لحيّ، وكانوا على بقية من دين إسماعيل فأفسد بذلك عقائدهم. وأمّا الطواغيت

الكبار فهي ثلاثة: اللات وهي تحريف لفظة الإلهة، والعزى، ومناة^(١). وكانت كل واحدة منها لمصر من أمصار العرب، فاللات لأهل الطائف، والعزى لأهل مكة، ومناة لأهل المدينة. وكانت العرب تعظم هذه الربات، وتجعلها بنات الرحمن، وتنقصدها من كل صوب، وأما اصنام الكعبة فكثيرة منتشرة حولها وفي داخلها، وكان أعظمها هُبَيل^(٢). وكانوا يستقسمون عنده بالقداح، ويستخironه في أمورهم وأعمالهم. وكانت الكعبة مزاراً لأكثر القبائل، يحجون إليها، ويكسونها الحلال والديباج، وينحررون عندها متقربين، ويريقون دم الذبيحة على أوثانها، وكانت السيادة عليها لقريش دون سواها. وكان في العرب طائفة من عبدة الكواكب كحمير قبل أن يتهودوا، ومنهم من عبدة النار، أو القائل بالثنوية، أو بالدهرية. ومنهم من أحل زواج الأب بابنته. وهذه العقائد سرت إليهم من الفرس والمجروس وما عندهم من معتقدات مزدكية ومانوية.

على أن العرب، مع إشراكهم وتعدد معبوداتهم، كانوا

(١) مناة هي أقدم الطواغيت الثلاثة وكانت منصوبة على ساحل البحر الأحمر بين مكة والمدينة، تعظمها الأوس والخزرج، وتسلّتها هذيل وخزاعة.

(٢) وهو صنم من عقيق أحمر على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى، أدركه العرب كذلك فجعلوا له يداً من ذهب.

يميلون في جملتهم إلى التوحيد، ويتقربون إلى الله الواحد
بعبادة الأصنام والكواكب فيجعلونها ذرائع للوصول إليه.

عقائدهم: كانت العرب تؤمن بوجود الجن والعفاريت،
وبمخالطتها للإنس في السُّكُنِي والاستهواء والمؤاكلة
والزواج، ويؤمنون بزجر الطائر، يتفاءلون به إذا سُنح^(١)
ويتشاءمون إذا بَرَح^(٢)، ويؤمنون أيضاً بالكهانة^(٣) والعرفة^(٤)
والهامة، ويعودون أطفالهم بسن ثعلب وسن هرة خوفاً من
الخطفة والنظرية، كما يتعوذون من الجن بالأدعية وسواها.

علومهم: ألمَ العرب في بداوتهم بعض العلوم التي
يحتاجون إليها في حياتهم الفطرية، فقد عرفوا شيئاً من الطب
والبيطرة، وكانوا يداوون مرضاهم بالعقاقير والكَيِّ، والحجامة
والأشربة وخصوصاً العسل، وربما استعملوا السحر والرُّقُنِي
والتعاويذ لإبراء الملعون وإخراج الجن والشياطين. وكان
أطباؤهم في الأغلب من الكهان والعرافين. كما عرفوا شيئاً
من علم النجوم ومهاب الرياح بكثرة تتبعها والنظر إليها لأنهم
كانوا يهتدون بها في أسفارهم، ويستدللون على سقوط

(١) مُرُ عن البَيْنِ.

(٢) مُرُ عن الْبَسَارِ.

(٣) علم الغَيْبِ.

(٤) علم الْمُسْتَقْبَلِ أو الْمَاضِيِّ.

الغيث. وكانت لهم معرفة بالأنساب والأيام والأخبار
والأساطير، وبالقيافة وهي الاستدلال بهيئة الإنسان وأعضائه
على نسبة، والاستدلال بآثار الأقدام على أصحابها،
وبالكهانة، وهي معرفة الأمور المستقبلة وتعبير الرؤى
والأحلام، وبالعرافة، وهي مختصة بالأمور الماضية. وكان
أشهر الكهان عندهم شق وسطيح، وهو من أهل الأساطير،
فقد زعموا أن شقاً وسطيحاً كانوا من أبناء الحالات، وكان شقاً
نصف إنسان من أعلى إلى أسفل، وسطيح جسداً ملقي لا
جوارح له، يدرج كالثوب، ووجهه في صدره، وليس له رأس
ولا عنق، ولا يقدر على الجلوس، إلا إذا غضب، فإنه يتتفخ
ويجلس. وكانت ولادتهما في يوم واحد، وقيل إنهما عاشا
ستمائة سنة، وقيل أن سطيحاً عاش سبعمائة سنة ومات في زمن
كسرى أبو شروان. ومن أشهر العرافين عندهم عراف نجد،
وعراف اليمامة. وكان عرب اليمن والحواضر المتاخمة أوسع
علمًا وحضارة من عرب البادية لاتصالهم بالفرس والروم
والسريان.

لغة العرب وأدبهم في العصر الجاهلي

اللغة: اللغة العربية هي إحدى اللغات المشتقة من الأصل السامي، ويوجد بينها وبين شبيقاتها مشابهات كثيرة. وكانت في العصر الجاهلي على لسانين، اللسان الحميري في الجنوب، والعدناني في الشمال، وكل منهما يغاير الآخر في أوضاعه وأحكامه.

واللسان العدناني هو الذي نستعمله في الكتابة، وبه جاء الأدب الجاهلي، ولم يأتنا أدب بلسان حمير. وكانت مكة بما لها من تأثير ديني وتجاري، مجتمعاً للقبائل العربية، على اختلاف لغاتها، وكانت تقام الأسواق في عكاظ وغيرها، فنشأت عن طريق هذا الاتصال المباشر وغير المباشر لغة أدبية مهذبة عُرفت بلغة قريش، كما أخذ العرب الفاظاً من اللغات الأعجمية وعربوه ليسدوا به ثلمة لغتهم، وهذه الألفاظ الدخيلة على اللغة أخذت في الغالب من الفارسية والرومية والهندية، وأكثرها يختص بالأدوات والمنسوجات والشجر والعقاقير، ومن العبرانية والسريانية والحبشية، ولا سيما الألفاظ التي لها علاقة بالدين، ومن الطبيعي أن تكون لغة

الجنوب المتحضر أكثر اتساعاً لمعاني الاجتماع وال عمران من لغة أهل الوبر في الشمال، غير أنها لم تصل إلينا في جملتها. ولللغة الجاهلية قوية التعبير، كثيرة الإيجاز، لا تخلو من خشونة البداوة وغرابة اللفظ، حافلة بضروب الكناية والمجاز، تسلس للشعر والوصف والخطابة.

الكتابة في الجاهلية: غلبت الأمية على العرب في جاهليتهم، ولا سيما عرب البدية، لأن حياتهم الفطرية المضطربة في حدودها السياسية والاجتماعية لم تتسع لصناعة الكتابة التي تنشأ وتزدهر بنشوء الجماعة المنظمة المستقرة. بيد أن سكان الحواضر من أهل اليمن اصطنعوا الكتابة لما هم عليه من استقرار يبعث على التقدم والعمaran. وعرب الشمال لم يُحرموا أيضاً فن الكتابة رغم شيوخ الأمية فيهم.

الأدب الجاهلي: أدب شفهي نقلني، كتب له السيرورة والاستمرار بواسطة التداول، فهو يحفظ في الذاكرة لا في الأوراق، حيث تكثر الرواية في العصور الشفهية فتقوم مقام الكتب والدفاتر. وكان لكل شاعر في الجاهلية راوية أو أكثر، يحفظ شعره ويرويه للناس، وعن طريق الرواية دون الأدب الجاهلي، بعد ما شاعت الكتابة في العصور اللاحقة، ولكنه لم يصل إلينا سالماً، فقد ضاع منه شيء كثير لم ينقله الرواة،

أو ضاعت روايته؛ كما دخل عليه نُحل كثيرة، لأسباب عديدة منها المنافسات القبلية، ومنافسات الرواة في الحفظ، وحرصهم على التكسب والحظوة به. والأدب الجاهلي في معظمها قائم على الشعر، لأن أكثر ما وصل إلينا من الشر مشكوك بأمره، هذا فضلاً على أن مادته غير كافية للدرس، هذا مع العلم أن لغة الشر في الشعوب البدائية تكون محاكية لغة الشعر في مجازها وخيالها وموسيقى ألفاظها. والشعر في أول أمره لم يكن إلا أشطراً لا ضابط لها، يربتها البدوي على هواه ويتنفس بها ويحدو إيله. ومن طبع الإنسان أن يميل إلى الغناء في حزنه وسروره، في خوفه وأمنه، في راحته وتعبه. ولعل السجع الذي كان ينطق به كاهن القبيلة وشاعرها هو المظهر الفني الأول للأدب العربي، بل هو المادة المشتركة بين الشعر والشر. ثم أخذ الشعر بعد ذلك ينفرد بأوزانه وقوافيه، ويتفق الرواة على أن عهد المهلل وامرئ القيس هو عهد ازدهار الشعر، وظهور القصائد الطويلة واستقرار الأسلوب التقليدي. لأن بدء تاريخ النهضة غير معروف وذلك لضياع الآثار التي وجدت قبل الشطر الأخير من القرن الخامس، ويتفق المؤرخون الاقدمون على أن الشعر نهض أولاً في ربعة، ثم تحول في قيس عيلان، ثم صار زمن النبوة إلى قريش والأنصار بعامل الحروب التي حدثت بين

ال المسلمين الأوائل والمرتدين . وهكذا لبث الشعر طوال العصر الجاهلي محصوراً في الbadية لا يتنفس خارج الجزيرة إلا بشعراء منها يقصدون الشام أو العراق لمدح الغساسنة والمناذرة ، ولم يُعرف في الحيرة غير شاعر واحد هو عدي بن زيد ، وأصله من عرب الجزيرة وعلى وجه التحديد من تميم .

الشعر الجاهلي

ميزة الشعر الجاهلي: إذا ما أمعنا النظر في الشعر الجاهلي تبين لنا أن له أبواباً رئيسية مستقلة، هي: الفخر والحماسة، والمدح، والهجاء، والرثاء؛ وأغراض إضافية غير مستقلة وإنما تأتي عَرَضاً أو بشكل ثانوي، كالغزل، والطبيعة، والخمريات، والحكم والمواعظ.

ولكن الوصف أعظم ركن يعتمد عليه الشاعر في مختلف أبوابه وأغراضه، لما له من عين نافذة متيقظة شديدة الملاحظة دقيقة المراقبة، متنبهة لكل ما يحيط بها وما يدور حولها؛ فإذا أراد الشاعر منهم أن يصف شيئاً ما، أحاط بالموصوف من أظهر نواحيه، أو أحاط بناحية منه يطلبها دون غيرها، مشيناً موصوفه على الحالين، مخرجًا عنه صوراً حسية رابية الملمس تنقله أحياناً نقلأً آلياً مهذباً، وتخلفه حيناً خلقاً شعرياً ذكياً. والشاعر لا يصف إلا ما يؤثر في نفسه مما يعاشه ويسمعه ويراه، أو مما يتوهمه فيحسه وتنطبع له صورة بلية في خياله.

ثم يخرج من الوصف إلى قصص قصيرة يحدُث بها عن

مغامراته الغرامية، أو عن معاركه وغزواته، أو يروي شيئاً من الأخبار والأساطير مما انتقل إليهم من الشعوب المجاورة، أو من نشأ في باديتهم.

ولكن خيال الجاهلي لم يتسع للملاحم والقصص الطويلة لأنحصره في بادية متشابهة الصور، محدودة المناظر من جهة، ثمّ لمأدبيهم وكثافة روحانيتهم، ولفرديهم وضعف الروح القومية والاجتماعية فيهم من جهة أخرى. أضف إلى ذلك كله قلة شأن الدين في نفوسهم وقصر نظرهم عما وراء الطبيعة، ولهذا ترى الجاهلي منهم لم يلتفت إلى أبعد من ذاته المحدودة، ولا إلى عالم غير العالم المنظور، ولهذا لم تولد عندهم الأساطير الخصبية كما تولدت عند غيرهم من الشعوب البدائية. كما لم يكن لأصنامهم من الفن والجمال والإبداع والإيحاء الروحي والنفسي ما يبعث الوحي في النفوس شأن أصنام اليونان والروماني مثلًا، فقليل منهم من ذكر أوثانه أو استوحها من شعره، كما أن مجتمعهم لم يساعدهم على التأمل الطويل وربط الأفكار وبُعد آفاق الخيال، وذلك لاضطراب حياتهم برحلتهم المستمرة ويتنقلهم الدائم، فجاء نفسمهم قصيراً كإقامتهم، وخيالهم متقطعاً كحياتهم، صافياً واضحاً كسمائهم وسطوع أنوار شمسهم، قريب التصور، داني الفكر، محدود الألوان لطبيعة

صحرائهم. وكانت ثقافتهم الأدبية فطرية خالصة يتغذى بعضها من بعض. وجاءت حروبهم وغزوatهم محدودة الأثر لا تتجاوز الباذية والقبيلة، فلم يكن من شأنها أن تبدع ملحمة كملحمة هوميروس في حضارة طروادة. فلهذه الأسباب مجتمعة اقتصر شعرهم على أغراض وجدانية تغمرها الذكريات، متبرورة الفصص، يتواطأون عليها بأسلوب مشابه الاتجاه متداول المعاني والتعابير، فيستهلون على الغالب، ولا سيما القصائد الطوال، بذكر الديار الخالية، والوقوف على الأطلال للبكاء أو للتحية والسؤال، معددين المواقع التي توصل إليها أو تحيط بها، متشارقين إلى أحبتهم يوم كانوا يعمرونها، مشيدين بهم مستعيدين ذكرى فراقهم. ثم يرحلون بعد ذلك على ناقتهم مفرجين بها همهم، قاصدين الحبيبة أو الممدوح، فيصفونها عضواً عضواً بدقة متناهية، ويصورون سرعتها ونشاطها ثم يتقلون إلى المدح أو الفخر أو غير ذلك من الأغراض الشعرية، فيجتمع لهم في قصيدة واحدة عدة أغراض، ويكون انتقالهم من غرض شعري إلى غرض آخر في أكثر الأحيان اقتضاياً ووثباً، أو بواسطة كلمة أو جملة كأن يقول مثلاً دُعْ ذا أو عُدَّ عن ذا. والجاهلي صادق في الكلام عن حياته وأحواله ومجتمعه، صادق في مدحه وهجائه إلى حد لا يسلم معه من الغلو، ولكنه كاذب في كثير من مفاخره،

معالج إلى حد الإفراط في مراثيه؛ ولغة الشعر الجاهلي قوية المدلول في ألفاظها الوضعية، سواء كان التعبير حقيقياً أو مجازاً، خشنة، كثيرة الغريب، وهي إلى ذلك متوازنة الصور في تشابهها الحسيّة وما يختلف إليها من استعارات وكتابات قليلة الاحتفال بأنواع البديع؛ جارية مع الطبع ببرائتها من التكلف، فقوة الشعور الفني وحدها هي التي تهدي الجاهلي إلى اختيار ألفاظه وآخر ارجها من معدن واحد، فتأنى محكمة التركيب متماسكة، تعبّر بتموجاتها وأجراسها أصدق تعبير عن الحالة التي يحسها في نفسه ويتصورها في خياله.

وفي تشابهه وكتاباته واستعاراته دلالات بينه على حياته وطبيعة أرضه، فأكثرها مستمدّة من الصحراء، نباتها وحيوانها، ومن مرافقها المحدودة ومعيشة أهلها، ومن عاداتهم وعقائدهم وأساطيرهم. وقد ينحط إلى تشابه ننكرها في زماننا، ولا تستنكرها فطرته، كتشبيه أمرىء القيس أصابع محبوته بالأساريع^(١). وتشبيه طرفة نفسه بالعيير المعبد^(٢). وكانوا من عادتهم إذا شبهوا، يتركون المشبه وينصرفون إلى المشبه به، ليصفوه وصفاً دقيقاً، ومن المأنس في شعرهم

(١) الأساريغ: دود أبيض الابدان، أحمر الرؤوس، مفردها أسروع ووجه الشبه بياض الأصابع وطرادتها وحمرة أطرافها بالخضاب.

(٢) أي الجمل المطلبي بالقطران لجربه.

نداء الصاحب والصاحبين، والاستفتاح بأُلّا، وإدخال ولقد
وواو رب، والقسم بلعمري، كما أن معانيهم لا تخلو من
غموض، ويعود ذلك إلى غرابة الألفاظ وما فيها من ايجاز
وحذف، أو لما تتضمنه من تلميحات إلى حوادث تاريخية،
أو إلى عقائدهم وعاداتهم مما لا تدرك مقاصده إلا بمعرفة
حياتهم وأخبارهم. ولكن الغموض الفني فقليل عندهم
لمادية الفاظهم، وبعدها عن الرمز والتتصوف؛ ثم لضعف
روحانيتهم، وضيق خيالهم، ودنو تصورهم وعنایتهم بسرد
الأخبار وإظهار الحقائق المحسوسة، واعتمادهم على
الأساليب الخطابية الواضحة والحكم والأمثال البديهية.

وجاءنا عنهم من الاوزان خمسة عشر بحراً ضبطها
الخليل بن أحمد الفراهيدي، وزاد عليها تلميذه الأخفش بحر
الخبب أو المتدارك؛ وأكثر ما نظموا على الأبحر الكثيرة
التفاعيل، كالطويل والبسيط والكامل، ثم على الأبحر اللينة
التي تصلح للأغراض الوجدانية العاطفية، كالوافر والرمل
والخفيف. كما لم يخلُ شعرهم من زحاف^(١) مستكره
نستقبحه اليوم ونأنبه استعماله. وأماماً منظومهم فهو قصيدة
ورجز، وأراجيزهم في الغالب قصيرة، وهي مثل قصائدتهم

(١) الزحاف: تغير بمحنة في حشو البيت غالباً وهو أنواع .

تجري على قافية واحدة وزن واحد. ويستحسن عندهم تصريح المطلع أو تقويفه. ولا تعوزهم سلامة الطبع التي ترشدهم إلى اختيار القافية الملائمة للبيت في معناه ولفظه. ولكنها لم تخلص من عيوب مذمومة كالاقواء^(١)، والاكفاء^(٢)، وأنواع أخرى مكرورة من السناد^(٣). وبيت الشعر عندهم صورة لقطع أفكارهم وخيالاتهم، يستقل بمعناه ولا يتعلّق بما يليه، وهذا الاستقلال جعل القصيدة عرضة للتشويش في مواضع جمة، يحذف منها ولا يُحسّ نقصانها وينبئ بترتيب أبياتها ولا يظهر خلل فيها.

على أن الشعر الجاهلي المستقل بيته، لا ببنائه يرتفع أحياناً إلى غاية الجمال، وهو في الجملة أخلص الشعر القديم جوهرأ، وأصدقه شعوراً وتعبيرأ وابحاء، يأتي به الشاعر بقوة الاحساس الفني، على فطرته وسجيته وصفاء نفسه، بالإضافة إلى ما فيه من بدأوة ووحشية وخشونة.

(١) الاقواء: اختلاف إعراب القوافي.

(٢) الأكفاء: اختلاف الحروف في الروي.

(٣) السناد: كل عيب يحدث قبل الروي.

صدر الاسلام

٦٢٢ - ٧٥٠ م

١ - ١٣٢ هـ

لمحة تاريخية

النبي محمد ﷺ والدعوة الاسلامية: ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي في مكة سنة ٥٧٠ م وهو عام الفيل عندما هاجم الأحباش الكعبة بقيادة أبرهة الأشرم، أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف من قريش، توفى والده قبل أن يولد، ولم يترك له ولا مه من المال إلّا خمسة من الإبل، وقطيعاً من الغنم وجارية^(١). فكفله جدّه عبد المطلب. ثم ما لبثت أمه أن ماتت وهو رضيع، ومات جدّه عبد المطلب، فكفله عمه أبو طالب والد علي (كرم الله وجهه)، وكان قليل المال كثير العيال. فنشأ محمد ﷺ يتيمًا في كنف عمّه، حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره تزوج خديجة بنت خويلد، وهي في الأربعين من عمرها،

(١) هي أم آمين حاضنة النبي.

وكانت من أغنياء قريش وآشرافهم، فأمدته بمالها فايسر
وأتسعت حالي.

وكان محمد صلوات الله عليه يميل إلى العزلة، ويذهب إلى غار قرب
مكة يُدعى غار حراء فينفرد فيه مفكراً بأحوال قومه ومتعبداً.
ويبينما هو نائم ذات ليلة في الغار، نزل عليه الوحيُّ، وكان قد
بلغ الأربعين، فأخبر زوجته خديجة بما سمع ورأى،
فسارعت إلى قبول دعوته، ثم تبعه بعدها ابن عمه علي بن
 أبي طالب وكان لا يزال فتىً حديثاً، ثم صديقه أبو بكر.
ولكن قومه أنكروا دعوته، وسخروا منه وقالوا: «ساحرٌ أو
مجنون». ثم أخذوا يضطهدونه وأتباعه، ولما يش منهم،
حول وجهه شطر الطائف^(١) ودعا أهلها، فإذا هم أقسى من
قريش، وأغروا به سفاههم فرجموه بالحجارة. ثم علم أن
قومه يريدون الایقاع به، فهاجر من مكة إلى يثرب مستخفياً،
فلقي في يثرب من أهلها قبيلتي الأوس والخزرج اتباعاً
يُناصرونَه فسمُّوا «الأنصار» كما سُميَّ الذين هاجروا مع النبي
«المهاجرين» وسميت يثرب «المدينة» أي مدينة الرسول.
ومن ذاك التاريخ يتبدىء التاريخ الهجري، أي سنة ٦٢٢ م.
واساء القرشيون أن ينجو النبي ويتحتمي في يثرب، وإن

(١) الطائف: بلدة في الحجاز كانت لبني نفيف.

يلتقي هناك أنصاراً وأعواناً، فناصبو أهلها العداء، وقابلهم هؤلاء بالمثل، فقطعوا الطرق على قوافلهم، وابتداط الغزوات يتبع بعضها بعضاً، وكان النصر في أكثر هذه الغزوات حليف المسلمين، حتى فُتَّ أخيراً في عَضْد المشركين، فغزا النبي مكة بعشرة آلاف مقاتل فافتتحها سلماً سنة ٦٣٠ م أو ٩ هـ. ووقعت قريش في يده، فأمنهم وأسلموا عن بكرة أبيهم، ثم دخل الكعبة وأزال منها الأصنام والصور والتتماثيل، وأخذ العرب يدخلون في الإسلام أفواجاً بعد أن أسلمت قريش وذلك لزعامتها بين القبائل، فتم النصر للنبي ، وبذلك بنى حجر الزاوية في الوحدة العربية الإسلامية، والتي ظل يسوسها حتى قُبض يوم الاثنين في ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ. أو ٨ حزيران سنة ٦٣٢ م، وكانت وفاته بالمدينة وفيها قُبر.

هذا ما كان من أمر النبي ﷺ والدعوة الإسلامية، والتي كان كعب في مقبل الشباب عند ظهورها واشتهار أمرها.

كعب بن زهير

٦٤٥ م - ٢٦ هـ

وكعب بن زهير واحد من أبناء هذه البيئة الصحراوية وأحد شعرائها البارزين، عاش شطراً من حياته في الجاهلية، وعاش الشطر الباقي في الاسلام، فهو وبالتالي أحد الشعراء المخضرمين^(١)، وقد رأينا مميزات وطبيعة العصر الجاهلي، وألقينا نظرة على خصائص ومميزات الشعر في هذا العصر، ونرى الآن أن نلقي الضوء على طبيعة وخصائص ومميزات الشعر المخضرم، لكي نعطي فكرة واضحة عن الشعر عند الشعراء المخضرمين بصورة عامة وعند كعب بن زهير بصورة خاصة، ولنعلم نقاط الاتفاق والافتراق بين شعر هؤلاء وشعر العصر الجاهيلي.

مميزات الشعر المخضرم: إننا لا نجد فرقاً بين الشعر الجاهلي والشعر المخضرم من حيث الإيجاز وقوه التعبير، وطريقة النظم، وتعدد الموضوعات، وبراعة الوصف إلى غير

(١) الشاعر المخضرم: هو الذي عاش في عصرين مختلفين.

ذلك مما مرّ بنا أثناء كلامنا عن الشعر الجاهلي ، لأن الشعر المخضرم جاهلي في أصله .

إلاً أننا نجد فيه خصائص جديدة ، أهمها تطور اللغة ، ورقة اللفظ ، ووضوح المعنى ، كما يمتاز بتلك الفحة الدينية التي نفعه بها الإسلام بعد ظهوره ، فأصبحنا لا نرى فيه يأساً من الحياة ، وتبمراً بمصيرها شأن الشعر الجاهلي ، بل تلمس به ارتياحاً شديداً إلى نعيم الآخرة ، إلى الجنة التي وعد بها الله عباده المتقين . كما اكتسبت اللغة عموماً ، والشعر المخضرم خصوصاً تعابير جديدة من القرآن ، وألفاظاً لم تكن مألوفة من قبل ، كالجنة والنار ، والكفر والإيمان ، والصلوة والزكاة ، الركوع ، والوضوء ، إلى ما هنالك من الالفاظ والتعابير التي ظهرت بظهور الدين الجديد ، ورغم أن هذه الالفاظ كانت معروفة في الجاهلية ، ولكنها في أكثرها لم تكن تدل على معانيها المستحدثة في الإسلام ، كما اكتسب الشعر نوعاً جديداً وهو الهجاء السياسي ، هجاء مُرْ مقدع أليم . جرى بين شعراء الرسول ﷺ وشعراء قريش والاحزاب .

على أن الشعر أصيب بفتور بعد وفاة الرسول ﷺ ، فلم يجد من الخلفاء الراشدين من يشجعه ، بل ربما نهوا عنه ، وزجروا الشعراء ، بيد أن هذا الفتور لا يعني أن الشعر قد

خدمت ناره، وانطفأ أواره، فقد بقي في الشعرا طائفه لم تصرف عنه، إلا أنه لم يكن له ذلك الازدهار الذي عرفه في الجاهلية أو في حياة الرسول ﷺ. عندما أنكرت قريش عليه دعوته وحاربته مدة تزيد على ثمانى سنوات بعد هجرته إلى المدينة، ولم تقتصر الحرب بينهم على السيف وحده، بل كان للشعر فيها شأن كبير. فأخذ شعرا قريش واحزابها يهجون الرسول ﷺ هجاءً مرأ، ويسفهون رسالته، ويسيرون منها، ويعبرون تابعيه من الانصار والمهاجرين، مما اضطرّ الرسول ﷺ أن يحاربهم بسلاحهم، لما يعلمه ما للشعر من التأثير في نفوس القبائل العربية، فأرسل عليهم ثلاثة من شعرا الانصار وهم: حسان بن ثابت، وكتب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وقد أغنت هذه الملاحيات الشعر فنهض نهضة عظيمة، وغزرت مادته وكثرة القول بكثرة الشعراء، ولا سيما شعرا قريش، وكانت قبلًا لا تُذكر مع القبائل في الشعر، وبرز من شعرائها أربعة هاجوا الرسول ﷺ وقاوموا شعراه وهم: عبد الله بن الزبيري، وأبو سفيان بن الحمرث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص، وضرار بن الخطاب. ولكن لم يصل إلينا من شعرهم إلا شيء يسير ليس فيه غنا، ولا عجب أن تُطمس أشعارهم واسعار غيرهم من الشعراء الذين ناصبو الرسول ﷺ العداء، خصوصاً بعد أن

دخلت قريش في الإسلام، وساد الإسلام الجزيرة العربية،
ولا يكاد يُذكر الرسول ﷺ إلا ويذكر معه كعب بن زهير
ولاميته الشهيرة التي اعتذر بها إليه يوم إسلامه.

هوبيه وحياته: هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المعنى، والده شاعر كبير من شعراً الجاهلية التي طبقت شهرته الأفاق، وقد نشأ كعب في بيئة شعرية صرف، إذ لم يجتمع في الجاهلية حظٌ من الشعر كما اجتمع لأبيه زهير بن أبي سلمى، فقد كان أبوه ربعة شاعراً، وخاله بشامة بن الغدير الغطفاني شاعراً، وأختاه سلمى والحساء^(١) شاعرتين، وابنه كعب وبُجير شاعرين، وحفيدته عقبة بن كعب الملقب بالمضرب شاعراً، وابن حفيده العوام بن عقبة شاعراً مشهوراً روى له زهير ونظم الشعر ففاته، وأحمل ذكره، في مثل هذه البيئة الشعرية نشأ وترعرع كعب وأخوه بُجير، فأبواه هو أحد الثلاثة المقدمين في الجاهلية وهم: امرؤ القيس، والنابغة، وزهير، وقد أختلف في تقديم أحدهم على صاحبه، أقام والده زهير في بني مرّة معززاً مكرماً مسموع الكلمة، وكثير ماله وتزوج امرأة منهم تُكئي أم أوفى، ثم ما لبث أن جمع بينها وبين ضرّة يقال لها كبشه بنت عمّار من قبيلة غطفان،

(١) الحساء: هنا غير الحساء اخت صخر الشاعرة المشهورة.

فولدت له كعباً ويجيراً. نعم هذا هو البيت الذي نشأ فيه
 كعب، فنشأت معه ملكة الشعر فما كاد يتربع حتى نظمه،
 ولكن والله زجره عنه وضربه مخافة أن تكون شاعريته لم
 تكتمل بعد، فيُروى له من الشعر ما لا خير فيه. على أن
 الزجر والضرب لم يمنعه كعباً عن قول الشعر، فلبث يقوله غير
 مرتدع حتى ضاق والله ذرعاً به، فأردفه^(١) خلفه على ناقته
 وانطلق به إلى الصحراء، وأخذ يقول البيت، ويطلب إلى
 كعب أن يكمله، فلا يتوانى كعب عن اكماله، ويجيزه على
 أحسن وجه؛ فوثق أبوه عندئذ بنضوج ملكته الشعرية، وأذن
 له بقول الشعر. فكان من المبرزين حتى أن الخطيبة وهو فن
 في ميزان الشعر، رجاه أن يذكره في شعره قائلاً له: يا كعب
 قد علمت روائيتك أهل البيت^(٢) وانقطاعي إليك، وقد
 ذهب الفحولُ غيري وغيرك فلو قلتَ شعراً تذكر فيه نفسك
 وتضعني موضعًا بعده... فأن الناس لأشعاركم أروى وإليها
 أسرع، فقال كعب:

فَمَنْ لِلْقَوْافِيْ شَائِهَا مِنْ يَحْوِكُهَا
 إِذَا مَا ثُوِيْ^(٣) كَعْبٌ وَفَوْزٌ^(٤) جَرَوْلٌ^(٥)

(١) أربكه خلفه على الراحلة.

(٢) كان الخطيبة راوية زهير وأل زهير.

(٣) مات. (٤) ملك، مات. (٥) جرول: لقب الخطيبة.

يَقُولُ فَلَا تَعْبُر^(١) بِشِيءٍ تَقْوِلُهُ
 وَمِنْ قَاتِلِهَا مَنْ يُسِيءُ وَيَغْجَلُ
 كَفِيلُكَ لَا تَلْقَى مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا
 تَنْحَلُ^(٢) مِنْهَا مِثْلَ مَا يَتَنْحَلُ
 بِشَفَقَهَا^(٣) حَتَّى تَلِينَ مُشْتُونَهَا
 فَيَقْصِرُ عَنْهَا كُلُّ مَا يَتَمَثَّلُ
 وَمَا يَدْلِي عَلَى قُوَّةِ مُوهَبَتِهِ مِنْذِ صَغْرِهِ، مَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ
 الْأَغْانِيَ قَالَ: قَالَ زَهِيرٌ بَيْنًا وَنَصْفًا ثُمَّ أَكْدَى^(٤)، فَمَرَّ بِهِ النَّابِغَةُ
 فَقَالَ لَهُ: أَبَا أَمَامَةَ^(٥) أَجْزُ. فَقَالَ: وَمَا قَلْتَ؟ قَالَ: قَلْتُ
 تَزِيدُ الْأَرْضَ إِمَّا مُتْ خَفَاءً
 وَتَحِيَا إِنْ حَيِّتِ بِهَا ثَقِيلًا
 نَرَأَتِ بِمُسْتَقْرِي الْعَرْضِ مِنْهَا

أَجْزُ. قَالَ، فَأَكْدَى وَاللهُ النَّابِغَةُ. وَأَقْبَلَ كَعْبُ بْنُ زَهِيرٍ -
 وَإِنَّهُ لِغَلامٌ - فَقَالَ أَبُوهُ: أَجْزُ يَا بْنِي. فَقَالَ: وَمَا أَجْبِيزُ؟

(١) تَهْمَمْ.

(٢) اخْتَارَ.

(٣) يَهْذِيَهَا.

(٤) عَجزَ عَنِ إِنْتَامِهَا.

(٥) كَنْيَةُ النَّابِغَةِ.

فأنشده، فأجاز النصف بيت فقال: «وَتَمْنُعْ جَانِبَيْهَا أَنْ يَزُولاً»
فضمه زهير إليه وقال: أشهد أنك ابني.

وبعدما أذن له أبوه بقول الشعر، عاد إلى أهله وهو صغير
يومئذ وهو يقول:

أَيْتُ فَلَا أَفْجُو الصَّدِيقَ وَمَنْ يَنْعِ
يُعْرِضُ أَيْهَ فِي الْمَعَاشِرِ يَنْفُقِ

وكانت هذه أول قصيدة قالها.

كعب في الإسلام: لم يحدثنا الرواة كثيراً عن حياة كعب،
فنحن لا نكاد نعلم عنها ما يستحق الذكر إلا خبر إسلامه،
واعتذاره إلى الرسول ﷺ بقصيدته الشهيرة والتي مطلعها:
«بَانَتْ سَعْدًا». وذلك أن بُجيرأ أخي كعب وفد إلى النبي ﷺ
في أواخر السنة السابعة للهجرة فأسلم، ووصل خبر إسلامه
إلى أخيه كعب، فاستاء كعب من عمل أخيه، وقال فيه أبياتاً
يؤنبه على فعلته هذه ويحثه على الارتداد عن الإسلام:

الْأَبْلَغَا عَنِي بُجِيرَا رِسَالَةً
فَهَلْ لِكَ فِي مَا قَلْتَ، وَيَحْكُ، هَلْ لِكَ^(١)

(١) فهل لك في ما قلت: أي هل ما قلته وتلفظت به كان بمحض إرادتك؟

سقاك بها المأمون كأساً رؤية
 فأنهلكَ المأمون منها وعلّكَ^(١)
 ففارقت أسباب الهدى واتبعته
 على أي شيءٍ وَيَبْ غيركِ، دلّكَ^(٢)
 على مذهبٍ لم تُلِفْ أَمَا ولا أباً
 عليه، ولم تعرِفْ عليه أخاً لكَ^(٣)
 فإنْ أنتَ لم تَفْعَلْ فلستُ بآسفٍ
 ولا قائلٍ إما غُرْتَ: لعاً لكَ^(٤)

ويرى الدكتور طه حسين مستخلصاً من هذه الأبيات، أن
 بجيراً وأخاه كانا قد اتّملا بالنبي ، وأن بجيراً كان قد سبق إلى
 محضر النبي ، ليؤذيه ويُسُوءه، حتى إذا انتهى إليه آمن واهتدى
 كغيره من الذين سعوا إلى النبي يريدون بهسوء، فلم يجدوا
 عنده إلا هدىً ورحمةً ونوراً. واستبطأ كعب أخيه، وعرف من
 أمره ما عرف^(٥)، أو أنه شك في أمر إسلامه، فقال هذا

(١) سقاك بها: أي بالشهادة. المأمون: أحد أسماء النبي . رؤية: نامة مفعمة.
 أنهلك: من النهل وهو أول الشرب. علّك: سقاك تباعاً، أي سقاك
 فارواك. وجاء في بعض الروايات سقاك بها المأمور.

(٢) أسباب: طرق. وَيَبْ: دعاء عليه أي هلكت هلاك غيرك من تابعيه.
 (٣) لم تُلِفْ: لم تجد.

(٤) لم تَفْعَلْ: لم تردد. لعاً لك: وهو دعاء للعازر بالسلامة: أي إنْ أنتَ لم ترجع
 عها فعلته فلا أسفٌ عليكِ، ولا قامْت لك قائمة.

(٥) أي علم خبر إسلامه.

الشعر، والدليل على ذلك هو البيت الأول الذي يروى على
نحو يؤيد هذا المذهب والذي يقول:
فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتَ بِالْخِيفِ هَلْ لَكَ.

فالذى يفهم من هذا القول أنه كان قد قال شيئاً بهذا
المكان الذى يدعى «بالخيف» وهو كعب يذكره به،
ويحرضه عليه، ويستبطنه في إنفاذ ما قال، كما أن البيت الأخير
أيضاً صريح في هذا:

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَلَسْتَ بِأَسْفٍ
وَلَا قَائِلٌ إِمَّا عَثَرْتَ لَعَلَّكَ

وعلى هذا النحو يفهم إبعاد النبي لكتاب كعب وإهدار دمه، فقد
كان كعب والحالة هذه يلهم بالنبي ويحرض عليه، ويدرس
إلى محضره من يناله بالمكره، ثم هو فوق هذا وذاك يقول
الشعر كما كان يقوله غيره من شعراء العرب الذين كانت
تأجرهم قريش لدم النبي والإغراء به.

حتى إذا انتصر النبي في مكة وحنين، وأذعن العرب كلهم
لسلطانه الجديد، وقتل من قُتل بعد الفتح من خصوم الإسلام
واعداء النبي ، وفار من فر، كل ذلك قد ملا كعباً فرعاً
ورعباً، وقد حاول كعب الفرار والاستخفاء، ولكن الأرض
ضاقت به، والناس تخاذلوا عنه، حتى أن قبيلته أبى حمایة،

ونظر فإذا هو مأخوذ فهالك إذا لم يحتط لنفسه، وجاءته في
 اثناء هذا كله رسالة أخيه يحثه على الارساع في القدوم إلى
 النبي مسلماً معذراً، وبيان النبي رؤوف رحيم يأخذ العفو،
 ويأمر بالعرف، ويعرض عن الجاهلين، ولا يعاقب تائباً بما
 قدم قبل أن يتوب، وأخيراً استقرت عزيمة كعب على أن
 يستجير بعفو النبي من غضب النبي، وانطلق حتى بلغ المدينة
 سنة ٩ هـ ٦٣٠ مـ، فأوى إلى رجل من جهينة، فيما يقول
 بعض الرواة، كما يقول بعضهم الآخر أنه أوى إلى أبي بكر
 رضي الله عنه، فلما صُلِّيَتْ الصبح، أقبل أبو بكر ومعه
 كعب، وقد تلثم حتى استخفى وجهه، فلما انتهايا إلى النبي،
 قال أبو بكر: هذا رجل ي يريد أن يبايعك على الاسلام، فبسط
 النبي يده فبايعه كعب وأسلم، ثم ما لبث أن حسر اللثام عن
 وجهه، وقال: هذا مكان العائد^(١) بك يا رسول الله، أنا
 كعب بن زهير. وهم الانصار به، فوثب رجل منهم وهو
 يقول: دعني يا نبي الله أضرب عنقه، ولكنه ~~رسول~~ ردهم عنه
 قائلاً: وكيف وقد أتاني مسلماً؟! أما المهاجرون فقد كفوا
 عنه واحبوا إسلامه ولم يقولوا شيئاً. وهكذا بايع كعب النبي،
 واتخذه له جاراً، ويقال أن النبي استند أبا بكر هذه الأبيات
 التي مرت آنفاً، فأنشد إياها، فلما بلغ قوله:

(١) العائد: المستجير.

فَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُورُ مِنْهَا وَعَلَّكَا.

قال كعب: لم أقل المأمور يا رسول الله، وإنما قلت المأمون. فقال النبي مأمون والله، ورضي عن كعب، الذي قام فأنشده قصيده الرائعة:

بَانَتْ^(١) سُعَادُ فَقْلِبِي الْيَوْمَ مُتَبُولُ^(٢)
مُتَيَّمٌ^(٣) إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ^(٤) مَكْبُولُ^(٥)

ويقال إنه ظل ينشد حتى إذا انتهى إلى مدح قريش، أو ما النبي إلى الناس أن اسمعوا، فلما بلغ من هذا المدح أروعه وأجمله، أو ما النبي إلى المهاجرين أن اسمعوا، ولكن كعبا عرض بالأنصار فيما يقول الرواة، فغضب المهاجرون وقالوا: ما مدحنا الذي هجا الانصار، ويقال أن النبي نفسه غضب أيضا، وذلك بقوله:

(١) بانت: بعدت، وفارقت.

(٢) متبوّل: أي تبله الحب، اسقمه وأضنه.

(٣) متيم: مذلل بالحب.

(٤) لم يفدي: لم يجد من يفديه، فهو لم يزل مأسور.

(٥) مكبول: أسير مقيد.

يقول: إن الحب ذلل قلبه واسقمه ورماه بالأسر ولم يجد من يفديه.

كانت مواعيدهُ عرقوب لها مثلاً
وما مواعيدها إلا الاباطيل^(١)

وعرقوب هذا رجل من الانصار من يشرب يُضرب به المثل في
إخلافه بالوعد، يُقال انه كان صاحب نخل وأنه وعد صديقاً له
أن يعطيه تمر نخلة من نخلة. فلما حملت وصارت بلحاماً أراد
الرجل أن يصرمه، فقال له عرقوب دعه حتى يشفع أي يحمل
ويصفر، فلما شقحت أراد الرجل أن يصرمهما، فقال له عرقوب:
دعها حتى تصير رطباً. فلما صارت رطباً قال: دعه حتى يصير
تمراً، فلما صار تمراً انطلق عليه عرقوب فجده ليلاً فجاء الرجل
بعد أيام فلم ير إلا عوداً قائماً، فذهب موعد عرقوب مثلاً.

فاضطر كعب إلى أن يثني على الانصار في هذه الأبيات
الجميلة المشهورة:

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الْحَيَاةِ فَلَا يَزِلُ
فِي مِقْنَبٍ مِنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ^(٢)
الْمُكْرِهِينَ السَّمْهُرِيَّ بِأَذْرُعِ
كَسْوَافِلِ الْهَنْدِيِّ غَيْرِ قِصَارِ^(٣)

(١) الاباطيل: الأكاذيب.

(٢) مقنب: جماعة من الفرسان والخيول دون المائة تجتمع للغارة (ج) مقانب.

(٣) السهري: السيف. الهندى: السيف.

والبَادِلِينَ نُفْوَسُهُمْ لِنِيَّبِهِمْ
 لِلْمَوْتِ يَوْمَ تَغَانِقٍ وَكَرَارٍ^(١)
 يَنْطَهِرُونَ يَرْوَنَهُ سُكَّا لَهُمْ
 بِدِمَاءِ مَنْ عَلَقُوا مِنَ الْكُفَّارِ^(٢)

وقد أعجبت قصيدة كعب الرسول ﷺ فلم يكتف بالعفو
 عن كعب والاستماع له، والإقبال عليه، بل أراد أن يجيزه
 ويصله، فكساه بردة كانت له.. وقد بذل معاوية بن أبي
 سفيان لکعب عشرة آلاف درهم فلم يبعها له، فلما مات
 کعب اشتراها معاوية من ورثته بعشرين ألف درهم، وقيل
 بثلاثين، وتوارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون، ويقال إنها
 وصلت إلى سلاطين آل عثمان، وهي البردة التي كان الخلفاء
 يلبسونها في العيدين.

فقصه اسلام کعب من أولها جميلة رائعة حلوة محبيه إلى
 النفوس حقاً، وسواء أصحت كلها أم لم تصح إلا في
 جملتها، فإنها تهيء لقصيدة کعب جواً شعرياً ملائماً كل
 الملاءمة لجمالها وروعتها، وهي تلائم بنوع خاص مكان
 المدح الذي هو الرسول ﷺ، من الأساس أول الأمر،

(١) البادلين: المقدمين.

(٢) يقدم له الهدية والعلبة.

فكعب كان يلهمي بالنبي ~~ﷺ~~ ويحرض عليه ويأمره بليسوءه، وقد أهدر^(١) النبي دمه حين أتم له النصر، وحين دانت له العرب، فلما بلغه الوعيد استطير، ولفظته الأرض، وجفاه الناس، ونبأ عنده الأصدقاء، وخذله النصیر، فلجم من النبي إلى النبي، فوجد عنده حلماً وعفواً كريماً، ثم مدحه فوجد منه إقبالاً عليه واستماعاً له، ثم وجد منه بعد هذا كله كرماً وبذلاً وجوداً، وهذه لعمري هي مكارم أخلاق الانبياء، وحسن الشمائل والخصال ولنعد إلى القصيدة نفسها لنرى أنها تتألف من أجزاء ثلاثة، فاما أولها: فهو هذا الغزل الذي قصد إليه كعب في أول القصيدة كما تعود الشعراء أن يفعلوا. وأما الثاني، فهو هذا الوصف الذي انتقل إليه كعب بعد الغزل كما تعود الشعراء أن يفعلوا أيضاً. وأما الثالث: فهو المدح والاعتذار اللذين أنشئت القصيدة أساساً من أجلهما، وانتهت القصيدة إليهما، ونسمع هذا الغزل فنجده ونظم من إليه، وسنعجب به بإعجاباً شديداً، وسنرى فيه أثر أبيه زهير نفسه وأصححاً جلياً، ولكن كعباً قد يطلب^(٢) حيث يوجز أبوه، ولكن في اطنابه جمال وروعه، لأنه فصلَ كعب حيث لم يفصلْ أبوه.

(١) أهدر دمه: أباح دمه، أمر بقتله.

(٢) يطلب، إطناب، والاطناب هو كثرة الكلام مع فائدة.

فلما فرغ كعب من مدح النبي ﷺ والمهاجرين، شق^(١)
على الأنصار حيث لم يذكرواهم مع إخوانهم - وكان رجل منهم
قال لرسول الله ﷺ: دعني أضرب عنقك كما أسلفنا - فقالوا:
«ألا ذكرتنا مع إخواننا من قريش!» فقال يذكرواهم. وخاصة
بعد ما احتجَّ المهاجرون وقالوا: ما مدحنا الذي هجا
الأنصار.

مِنْ سَرِّهِ كَرَمُ الْحَيَاةِ فَلَا يَرْزَلُ
فِي مَقْبَبٍ مِنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ^(٢)
تَرْزَنُ الْجَبَالُ رَزَانَةً أَحْلَامِهِمْ
وَأَكْفَهُمْ خَلْفَ مِنَ الْأَمْطَارِ^(٣)
الْمَكْرُهِينَ السَّمْهُرِيُّ بِأَذْرُعٍ
كصُوَاقِلِ الْهَنْدِيُّ غَيْرِ قِصَارِ^(٤)
وَالنَّاظِرِينَ بِأَعْيُنِ مُخْمَرَةٍ
كالْجَمْرِ غَيْرِ كَلِيلَةِ الإِبْصَارِ^(٥)

(١) شق: صعب عليهم.

(٢) المقنب: الجماعة من الفرسان والخيل تجتمع للغارة.

(٣) أحلامهم: عقوفهم. يقول أن عقوفهم كبيرة راجحة وأكفهم سخنة كريمة.

(٤) السموري: القنا، الرمع. صوائق الهندي: السيف الفاطمة المنسوبة إلى الهند، لقد شبه أيديهم بالرماح لقوتها، وبسيوف افند، لضائتها وشدة قطعها.

(٥) الأعين الحمراء: كنایة عن الغضب والغيظ والشوق للقاء الأعداء.
الكليلة: الضمية.

والذادين الناس عن أدبائهم
 بالشرف وبالقنا الخطأ^(١)
 والباذلين نفوسهم لنبيهم
 يوم الهياج وقبة الجبار^(٢)
 دربوا كما دربت أسود خفية
 غالب الرقاب من الأسود ضواري^(٣)
 وهم إذا خوت النجوم فإنهم
 للطائفين السائلين مقاري^(٤)
 وهم إذا انقلبوا كان ثيابهم
 منها تضوئ فارة المطار^(٥)

(١) الشرف: السيف، نسبة إلى قرى من أرض اليمن، وقيل من أرض العرب تدنو من الريف. لسان العرب (٩: ١٧٤).

(٢) الهياج: الحرب. وقبة الجبار: أي بيت الله الحرام.

(٣) دربوا: اعتنادوا، من الدربة وهي العادة. خفية: أحجة «غابة» في سواد الكوكة بينها وبين الرحمة بضعة عشر ميلاً، ينسب إليها الأسود. غالب الرقاب: غلاظها. ضواري: مفترسة.

(٤) خوت النجوم: أي إذا لم يكن لها مطر، المقاري: الذين يقررون الضيوف، أي يقومون بضيافتهم.

(٥) انقلبوا: أي رجعوا. تضوئ: تفوح وتشتت. فارة المطار: نافحة المك أي وعاء.

والمُطْعَمُونَ الضَّيْفَ حِينَ يُنْوِهُمْ .
 من لَحْمِ كُومٍ كَالْهَضَابِ عِشَارٌ^(١)
 والمنعمونَ الْمُفْضَلُونَ إِذَا شَتَّوا
 والضَّارِبُونَ عَلَوَةَ الْجَبَارِ^(٢)
 رُمِيَتْ نَطَاءً مِنَ الرَّسُولِ بِفَيْلِقِ
 شَهْبَاءَ ذَاتِ مَنَاكِبِ وَفَقَارِ^(٣)
 بِالْمُرْهَفَاتِ كَأَنَّ لَمْعَ ظُبَاتِهَا
 لَمْعُ السَّوَارِيِّ فِي الصَّبَرِ السَّارِيِّ^(٤)

(١) يُنْوِهُمْ: ياتِيهِمْ، يتابِهِمْ. الكوم، الواحدة منها كوماً: وهي الناقة الضخمة السنام والسنام هو كومة الشحم الموجودة في أعلى ظهر الناقة أو البعير. الهضاب: مفردها هضبة، أرض ترتفع قليلاً عما حولها. العشار، الواحدة منها عشراء: وهي التي أنت عليها عشرة أشهر من حلها، أي حامل في الشهر العاشر.

(٢) شَتَّوا: دخلوا في فصل الشتاء، قال أبو منصور: والعرب تسمى القطع شتاء لأن المجاعات أكثر ما تصيبهم في الشتاء البارد، لأنهم يتزمون البيوت ولا يخرجون للاتجاج. العلواة: العنق. الجبار: الشديد القوي.

(٣) نَطَاء: بالفتح، وأخره ناء مربوطة: هو اسم لارض خير، وقال الزعدي: نَطَاء حصن بخير، وقيل: عين ماء بقربة من قرى خير. الفيلق: الجيش العظيم.

(٤) المُرْهَفَاتِ: السيف. ظَبَّاءَ، مفردها ظبة وهو حَدُّ السيف ومضربه. السواري: السحب التي تأتي ليلاً لأن برقتها يكون أشد لمعاناً. الصَّبَرِ السَّارِيِّ: السحاب الأبيض.

لا يُشْكُونَ الْمَوْتَ إِنْ نَزَّلْتَ بِهِمْ
 شَهَابَةً ذَاتَ مَعَاقِمٍ وَأَوَارٍ^(١)
 وَإِذَا نَزَّلْتَ لِيَمْنَعُوكَ إِلَيْهِمْ
 أَضْبَحَتَ عَنَّهُ مَعَاقِلَ الْأَغْفَارِ^(٢)
 وَرَثُوا السُّيَادَةَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ
 إِنَّ الْكَرَامَ هُمُّ بْنُو الْأَخْيَارِ^(٣)
 لِلصُّلْبِ مِنْ غَسَانَ فَوْقَ جَرَاثِيمِ
 تَنْبُوا خَوَالَدُهَا عَنِ الْمِنْقَارِ^(٤)
 لَوْيَعْلَمُ الْأَخْيَاءُ عِلْمِيَّ فِيهِمْ
 حَفَّا لِصَدَقَنِي الَّذِينَ أُفَارِي

(١) الشهاب: الكتبية من الجيش التي يلمع سلاحها. المعاقم: أهلاك.
 الأووار: شدة الحرب وضروراتها، ولعله أثر الغبار الذي يثور من وقع
 حوافر الخيل.

(٢) المعاق: الحصون، وهي هنا أعلى الجبال. الأغفار: الواحد غفر:
 وهو ولد البقرة وقيل ولد الأروءة، ولا يكون إلا في الجبال وقليلاً ما
 يكون في السهل.

(٣) كابراً عن كابر: أي كبيراً شريفاً عن كبير شريف.

(٤) الصلب: الجد الأعظم. غسان: وهو ماء بسد مارب باليمن واليه تنسب
 القبائل المشهورة. الجرائم: أصول الشجر يجتمع إليها الزراب فتكون
 أرفع مما حولها، وقد ضرب مثلاً للعز و الشرف والمنعة. الخوالد:
 الجبال. المنقار: آلة حادة تقطع بها الحجارة، أراد أن من رامهم وأراد
 بهم الشر امتنعوا عليه كما تمنع رواسخ الجبال على تلك الالات.

حَذَمُوا عَلَيْا يَوْمَ بَدْرٍ حَمْدَةً
 دَانَتْ عَلَيْهِ بَعْدَهَا لِنْزَارٍ^(١)
 يَتَطَهَّرُونَ كَائِنُوا نُسُكٌ لَهُم
 بِدِيمَاءِ مَنْ عَلَقُوا مِنَ الْكُفَّارِ^(٢)
 وَإِلَيْهِمْ أَسْتَقْبَلْتُ كُلَّ وَدِيقَةٍ
 شَهَادَةَ يَشْفَعُ حَرْمَهَا كَالثَّارِ^(٣)
 وَمَرِيضَةَ مَرَضَ النُّعَاصَ ذَعْرَتْهَا
 بَادَرْتُ عِلْلَةَ نَؤْمَهَا بِغَرَارٍ^(٤)
 وَعْلَمْتُ أَنِّي مُضَبِّحٌ بِمَضِيَعَةِ
 غَبْرَاءَ تَغْرِفُ جِبْهَهَا مَذْكَارِ^(٥)

(١) وَفِيلٌ: عَلِيٌّ هُوَ عَلِيٌّ بْنُ وَاتِّيلٍ. وَقَبْلِ عَلِيٍّ أَخُوهُ عَبْدُ مَنَّا بْنُ كَانَةَ بْنُ خَزِيمَةَ مِنْ أَمَّهُ، وَفِي ذَلِكَ أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. بَدْرٌ: مَاءٌ مَشْهُورٌ بَيْنِ مَكَةَ وَالْمَدِينَةِ، وَبِهَا الْمَاءُ كَانَتِ الْوَقْعَةُ الْمَشْهُورَةُ الَّتِي أَظَهَرَ اللَّهُ بَهَا الْإِسْلَامَ وَفَرَقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ اثْنَيْنِ لِلْهِجَةِ. دَانَتْ: خَضِّمَتْ وَذَلَّتْ.

(٢) النُّسُكُ: مَا يَذْبِحُ فِي الْحَرَمَ، عَلَقُوا: وَقَعُوا فِي الشَّبَاكِ، وَعَلَقَ الشَّيْءُ عَلَقًا لِزَمَهُ، وَعَلَقَتْ نَفْسَهُ الشَّيْءُ: هَجَتْ بِهِ.

(٣) الْوَدِيقَةُ: شَدَّةُ الْحَرَمِ. يَشْفَعُ: يَنْفُحُ الْوَجْهُ.

(٤) يَقُولُ: لَمْ أُتَرِكْ نَاقِي نَنَامَ إِنَّمَا بَادَرَتْهَا بِالرِّحْيلِ. وَالْغَرَارُ: قَلَّةُ النَّوْمِ.

(٥) الْمَضِيَعَةُ: الْقَفْرُ الْخَالِيُّ. غَبْرَاءُ: إِشَارَةٌ إِلَى جَدِيَّهَا وَقَلْتَهَا خَيْرَهَا. تَعْرَفُ تُصُوَّرُ. الْمَذْكَارُ: ذَاتُ هُولٍ وَفَزْعٍ، وَقَبْلٌ: الَّتِي لَا يَسْلُكُهَا إِلَّا الذَّكُورُ مِنَ الرِّجَالِ.

وَكَسَوْتُ كَاهِلَ حُرْةً مُنْهَوْكَةً
 بِالْفَجْرِ حَارِيًّا عَدِيمَ شَوَارِ (١)
 سَلِسَتْ غَرَاقِيَّهُ فَكُلُّ قِبْلَةٍ
 مِنْ جِنْوَهُ قَلَقَتْ إِلَى مِنْمَارِ (٢)
 وَسَدَتْ مُهْمَلْجَةً عُلَالَةً مُذْمَعِ
 مِنْ فَالِقِ حَصْدِيَّ مِنْ الْإِمَارِ (٣)
 حَتَّى إِذَا اكْتَسَيَ الْأَبَارِقُ نُقْبَةً
 مِثْلَ الْمُلَاءِ مِنَ السُّرَابِ الْجَارِيِّ (٤)
 وَرَضِيَّتْ عَنْهَا بِالرَّضَا لِمَا أَتَتْ
 مِنْ دُونِ عَشَرَةِ ضِيقَنِها يَسَارِ (٥)

(١) المنهوكة: التي أجهدها السير. الحاري: التسوب إلى الحيرة. عديم شوار: أي تخرق ما عليه من ثياب وغيره لطول السفر، وقال بعضهم: «عديم شوار» أي رحل لا نظير له.

(٢) سلس: قويت واستحكمت. العراقي: العيدان في مؤخرة الرحل. الجنو: خشب الرحل.

(٣) المهلجة: ضرب من العدو. العلللة: بقية كل شيء. المذمع: السوط. من فالق: يعني سوطاً من فيلق العنق. الحصد: الشديد القتل وكذلك الإمار فهو إحكام القتل وشدة.

(٤) البارق، الواحد أبرق: مرتفع من الأرض غليظ كثير الحجارة والطين. النقبة: ستار من السراب. الملاء: ثوب يلبس على الفخذين. الجاري: المترافق.

(٥) والضيقن: الاشتياق إلى الوطن. اليسار: البسر واللين. أراد أنها كانت

تَنْجُو بِهَا عَنْقُ كِنَازٍ لَخْمُهَا
 حَفَرَتْ فَقَارًا لاحقًا بِفَقَارٍ^(١)
 فِي كَامِلٍ وَشَجَتْ إِلَى أَطْبَاقِهِ
 دَأْيَاتٌ مُنْتَفَخٌ مِنَ الْأَزْوَارِ^(٢)
 وَتُدِيرُ لِلْخَرْقِ الْبَعِيدِ نِبَاطَهِ
 يَغْدِي الْكَلَالِ وَيَغْدِي نَوْمَ السَّارِي^(٣)
 عَيْنًا كِمْرَاءَ الصَّنَاعَ ثَدِيرَهَا
 بِأَنَامِلِ الْكَفَّيْنِ كُلَّ مُدَارٍ^(٤)
 بِجَمَالِ مَحْجَرِهَا وَتَعْلُمُ مَا الَّذِي
 تَبْدِي نَظَرُهَا زَوْجَهَا وَتَوَارِي^(٥)

= نباتاً في سيرها لأنها تسلك طريقاً غير طريق وطنها ثم تماست بعد ذلك.

(١) تنجو: تسرع في سيرها. كناز لحها: أي مكتنزة اللحم. حفرت: دفعت. الفقار: خرز الصلب والعنق والذنب.

(٢) وشجت: دخنت. الأطباق والدأيات واحد: وهي فقار العنق، وقيل: ضلع الصدر. الأزوار، الواحد زور: الصدر.

(٣) الخرق: الفرجة تكون في الثوب وغيره، وقال المؤرج: كل بلد واسع تخرق به الرياح فهو خرق.

الكلال: الإعياء. الساري: الذي يسرير ليلاً. أراد أن سير الليل وشدة الأعياء لا تطال منها.

(٤) الصناع: المرأة الحاذقة بالعمل والاعتناء بنفسها يعكس المرأة الحرقاء التي لا تبالي بزينة نفسها.

(٥) المحجر: ما يحيط بالعين من خارجها. تبدي: تظهر. وتواري: تخفي.

هذه القصيدة على البحر الكامل^(١)، وقد استهلها الشاعر بالمدح، ولم يستهلها بالغزل على عادة الشعراء في الجاهلية وصدر الإسلام، وهذا يعني أن هناك تحولاً جديداً في شعر كعب، إلا أنه تحول لم يكن جذرياً بكل معنى الكلمة، ولا هو يشكل انقلاباً على الانماط الجاهلية في المدح، وهذا التحول يمكن لنا أن نلمحه في المعاني الجديدة التي اهتدى إليها بعد إسلامه فقد وسع الإسلام مدارك عقله وآفاق خياله، وأمده بأشياء كثيرة كان يفتقدها ويجهلها، ولم يكن بوسعه أن يدركها لو لا ذلك الاطلاع على القرآن وعلى تعاليم الإسلام، ولذلك نجد كعب في هذه القصيدة أعمق فكراً وأشمل نظراً، كما أنها تحمل منهجاً مغايراً للسنتن التقليدي إذ نراه فيها يخلع ذلك النهج وكأنه رأى فيه تكراراً مملاً أو إرثاً قديماً لا يتناسب مع طبيعة العقيدة الجديدة التي آمن بها طائعاً مختاراً بل وتأيناً من قديمه الذي الحق به الضرر، وكاد يقضي عليه لو لا رحمة الله التي أكتفته، لذلك نراه يخرج فيها من طبيعته الأولى، ويخلع رداء التقليد الممل، ويخاطب الأنصار في شعر يحمل لأول مرة معارفه الجديدة ومكتسباته

(١) وزنه:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن
متتفاعلن متتفاعلن متفاعلن

الإيمانية المستحدثة ويقاد بتحلل فيه إلى حدٍ ما، من قيوده
الماضية، ويعمل عن رداء التقليد لو لا ذلك التخلص اللبق
الذي شدَّه إلى قديمه وحمله على وصف الناقة، ولو لا بعض
ذلك المدح الذي نلمع فيه أنفاس شعر الخنساء في رثائها
لأخيها صخر^(١)



(١) انظر بعض أبياتها «والمطعون الضيف، والمنعمون المنفلون إذا شتوا -
ورثوا السادة».

أشعاره



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

الرابط بديل lisanerab.com

قصيدة «بانت سعاد» وهي على البحر البسيط^(١).

بَانْتْ سَعَادُ، فَقْلُبِي الْيَوْمَ مَتَّبِولُ
مُتَّيْمٌ إِثْرَهَا، لَمْ يُجَزِّ^(٢) مَكْبُولُ
وَمَا سَعَادُ، غَدَاءَ الْبَيْنِ، إِذْ رَحَلَا^(٤)
إِلَّا أَغْنَ غَضِيبُ الْطَّرْفِ، مَكْحُولُ^(٥)
هِيفَاءُ مُقْبَلَةٍ، عَجَزَاءُ مُدِيرَةٍ،
لَا يُشْتَكِي قَصْرُ مِنْهَا، وَلَا طُولُ^(٦)

(١) مست فعلن فاعلن مست فعلن فعلن

مست فعلن فاعلن مست فعلن فعلن.

(٢) كذا في الأصل، وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة، أما في جمهرة اشعار العرب لابي زيد القرشي فقد ورد «لم يُعْذَ».

(٣) بانت: فارقت. متبول: متيم، هائم. متيم: مذلل بالحب. لم يجز: لم يجد من ينديه. مكبول: مقيد أسر.

(٤) ويروى في الشعر والشعراء: «إذ عرضت».

(٥) البين: البعد والفارق. أغن: صفة للغزال الذي في صوته غنة وهو صوت محظوظ يخرج من أقصى الأنف. غضيض الطرف: فاتر النظر، منكسر الأجناف. وهذه صفات حسنة من صفات العيون.

(٦) لم يرد هذا البيت في الديوان، وقد أتبته القرishi في الجمهرة. هيفاء: ذات قامة مديدة. عجزاء: ذات عجيبة ضخمة. وهذا ما كانت تحبه الأعراب في النساء. راجع فصل المرأة من هذا الكتاب.

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إِذَا أَبْتَسَمْتُ
 كَائِنَةً مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَغْلُولٌ^(١)
 شُجْتُ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَخْبِيَّةٍ
 صَافِ يَأْبَطَحُ، أَصْحَى، وَهُوَ مَشْمُولٌ^(٢)
 تَجْلُو^(٣) الرِّيَاحُ الْقَدِيْ عنْهُ، وَافْرَطَهُ
 مِنْ صَوْبِ سَارِيَّةٍ يَبْيُضُ يَعَالِيلُ^(٤)
 بَا وَيَحْمَاهَا خُلَّةً^(٥) لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ
 مَا وَعَدْتُ أَوْ لَوْ أَنَّ النَّصْحَ مَقْبُولُ^(٦)

(١) تجلو: تكشف. العوارض: الضواحك من الأسنان. الظلم: ماء الأسنان وبريقها ولعاتها. المنهل: المفقى مرة أولى. الراح: الخمر. المغلول: المفقى مرة بعد أخرى.

(٢) شجت: مزجت. ذو الشبم: البارد. الأبطح: الميل المتسع. المشمول: الذي أصابته ريح الشهال فبرده.

(٣) وروابته في الجمهرة وتتفق.

(٤) الصوب: المطر. أفرطه: ملاه. السارية: السحابة التي تنظر ليلاً. البيض: السحاب البيض، وقد حللت الصفة مكان الموصوف. اليعاليل، الواحد يعلول: السحابة الطويلة.

(٥) ويروى أيضاً: «وَيَلِ أَمْهَا خُلَّة». وفي جمهرة اشعار العرب: «أَكْرَمَهَا خُلَّة».

(٦) الخلة: الخليلة، الصديقة. يقول ما أكرمتها صاحبة لــ«أَنَّهَا تصدق وعدها أو أنها تقلل النصح في من يهواها».

لِكُنَّهَا خُلَةٌ قَدْ سِيَطَ مِنْ ذَمَّهَا
 فَجَعَ، وَوَلَعَ، وَإِخْلَافٌ، وَتَبَدِيلٌ^(١)
 فَمَا تَذُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا،
 كَمَا تَلَوَنُ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولُ^(٢)
 وَمَا تَمْسَكَ بِالوَصْلِ الَّذِي زَعَمْتُ
 إِلَّا كَمَا تُمْسِكُ الْمَاءُ الْغَرَابِيلُ^(٣)
 كَانَتْ مَوَاعِيدُ عَرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا
 وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ^(٤)
 أَرْجُو وَأَمُلُّ أَنْ يَفْجَلَنَّ فِي أَبِدٍ
 وَمَا لَهُنَّ طَوَالَ الدُّهْرِ تَعْجِيلٌ^(٥)

(١) سِيَطٌ: خلط. الفَجَعُ: الاصابة بما يكره. الْوَلَعُ: الكذب. إِخْلَافٌ: جعل شيئاً بدل آخر ذهب منه أراد أنها قد خلط بدمها الفَجَع بالمسائب والكذب في الاخبار وإخلاف الوعد وتبدل خليل باخر، وصار ذلك سجية لها وطبعاً يلازمها لا حيلة في زواله عنها.

(٢) كذا رواية صدر البت في الجمهرة، أما روايته في الشعر والشعراء: «وما تذوم على العهد الذي زعمت». والغول: السعلاة، وقد زعم العرب أنها تغناهم، وأنها تزاءى هم في الغلوات على صور مختلفة وأشكال متباعدة فضلهم عن الطريق.

(٣) أراد أنها لا تفي ببعدها وموانئها.

(٤) عَرْقُوبٌ: رجل من يربّ يضرب به المثل في إخلاله بالوعود.

(٥) وقد ورد في الجمهرة: أرجو وآمُلُّ أنْ تَذَوَّمْ مُؤْذَنَّهَا وَمَا اخْتَالَ لَدِينَا مِنْ تَنْبِيلٍ وَالتَّنْبِيلٍ: العباءة. يقول: مع اتصف بأجفانه وإخلاف الوعد، فإن لا =

فَلَا يُغْرِنُكَ مَا مَنَّتْ، وَمَا وَعَدْتْ
 إِنَّ الْأَمَانِيَّ وَالْأَخْلَامَ تَضْلِيلٌ^(١)
 أَمْسَتْ سُعَادًا بِأَرْضٍ لَا يُبَلِّغُهَا
 إِلَّا الْعِتَاقُ، النَّجِيَاتُ، الْمَرَاسِيلُ^(٢)
 وَلَنْ يُبَلِّغُهَا إِلَّا عَذَافِرَةُ
 فِيهَا عَلَى الْأَيْنِ إِرْقَالٌ وَتَبْغِيلٌ^(٣)
 مِنْ كُلِّ نَصَاحَةِ الدُّفْرِيِّ إِذَا عَرِفْتَ
 غُرْضَتِهَا طَامِسُ الْأَغْلَامِ مَجْهُولٌ^(٤)
 تَزْمِي الْغُيُوبَ بِعَيْنِي مُفْرِدٌ لِهِنَّ
 إِذَا تَوَمَّذَ الْحُرَزَانُ وَالْمِيلُ^(٥)

= أقطع الرجاء من موتها، ثم التفت إليها بخاطبها: ولا أحسب أن لي منك
عطاء، أرجوه.

(١) مَنَتْ: جعلتك تتعنى. تَضْلِيل: عدم الهدى.

(٢) لَا يُبَلِّغُهَا: لَا يبلغ سعاد إليها. العناق: التوق الكرام الأصول.
النجيات المراسيل: الريعات السهلة البدين في السير.

(٣) العذافرة: الصلة القوية. الْأَيْنِ: التعب والنصب. الإرقال: ضرب
سرير من السير. التبغيل: ضرب من المثلجة، يقال هملجت الدابة: سارت
سراً حساً في سرعة.

(٤) النصاحة: السائلة. الذفرى: ما تحت اذن الناقة ما يلي الرقبة.
عرضتها: أي إهتماماً ومقدرتها. الطامس: المدرس، المحتفي. الأعلام،
الواحد علم: وهو الإشارة على الطريق.

(٥) المفرد: المنفرد، أراد به الثور الوحشي. هن: شديد البياض. الحزان،
الواحد حزن: ما غلط من الأرض. الميل: ما تراكم ومال من الرمل.

ضخْمٌ مُقْلَدُهَا، فَعْمٌ مُفَيَّدُهَا
 في خَلْقِهَا، عن بَنَاتِ الْفَحْلِ، تَفْضِيلٌ^(١)
 غَلْبَاءُ، وَجْنَاءُ، عُلَكُومُ، مُذَكَّرَةُ
 في دُفْهَا سَعَةُ، قُدَّامُهَا مِيلُ
 وَجَلْدُهَا مِنْ أَطْوُمٍ مَا يُؤْتَى
 طَلْعُ، بِصَاحِبِي الْمُتَّبِينَ، مَهْرُولٌ^(٢)
 حَرْفُ أَخْوَاهَا أَبْوَاهَا مِنْ مَهْجَنَةُ
 وَعُمَّهَا خَالَهَا، قَوْدَاءُ، شِمْلِيلٌ^(٣)
 يَمْشِي الْقَرَادُ عَلَيْهَا، ثُمَّ يُزَلْقَهُ
 مِنْهَا لِبَانُ، وَأَقْرَابُ زَهَالِيلٌ^(٤)

(١) المقلد: موضع الفلادة من العنف. المقيد: موضع القيد، الرسغ. بنت الفحل: النوق.

(٢) الغلباء: الغلبيطة. الوجناء: عظيمة الوجنتين. العلكوم: الضخمة. مذكرة: تشبه الذكر. الدف: الجنب. قدامها ميل: أي أنها طويلة العن. الأطوم: قيل أنها سلحفاة بحرية، وقيل سمكة غليظة الجلد. يؤبى: يؤثر فيه. الطلعن: القراد. صاحبة المتبين: ما برز للشمس من ظهرها. مهروول: ضعيف.

(٣) الحرف: الناقة الصامرة. المهجنة: الكريمة. قوداء: طويلة العن. الشمليل: الخفيفة.

(٤) القراد: دويبة تتعلق بالبعير وغيره تتصدّر دمه وهي كالقمل عند الإنسان.اللبان: الصدر. الأقارب: الخواطر. الزهاليل، الواحدة زهلول: أي ملساء.

عيرانة قذفت في اللحم عن عرض
 بمرفقها عن نبات الزور مفتول^(١)
 كأن ما فات غينتها ومذبحها
 من خطمتها ومن اللحين بزطيل^(٢)
 تمر مثل عبيب التخل ، ذا خصل
 في غارز لم تخونه الأحاليل^(٣)
 لقد أقوم مقاما لو يقون به
 أرى وأسمع ما لؤيسمع الفيل^(٤)
 لظل يزعده إلا أن يكون له
 من الرسول بإذن الله ، تنويل^(٥)

(١) عيرانة: صلبة كالغير، والغير هو الجمل. وقوله: عن عرض، أي رمي باللحام في أغراضها. ونبات الزور: العضلات.

(٢) فات: تقدم. الخطم: مقدم الأنف، البرطيل: الحديد الطويلة أو الحجر الطويل.

(٣) عبيب التخل: الجريدة، شبه بها ذنب الناقة. الغارز: الضرع. تخونه: تقصصه الأحاليل، الواحد أحليل، وهو غرغ الملبب من الثدي.

(٤) يقول: لقد حضرت مجلساً هائلاً، ورأيت امراً عظيماً، وسمعت كلاماً عجبياً لو رأه وسمعه الفيل لظل يرعد.

(٥) يرعد: تأخذه الرعدة من شدة الخوف، وخص الفيل لأن أراد التهويل والتعظيم، لأن الفيل كما هو معروف أعظم الحيوانات وأضخمها جنة. التنويل: العطاء، وأراد به هنا التأمين.

حتى وَضَعْتُ يَمِينِي لَا أُنَازِعُهُ
 فِي كَفْ ذِي نَقَابٍ قَبْلَهُ الْقِيلُ^(١)
 لَذَاكَ أَهِبَّ عَنِي إِذَا أَكَلْمَهُ
 وَقَبْلَ: إِنَّكَ مَسْبُورٌ وَمَسْئُولٌ^(٢)
 مِنْ ضِيقِمِ مِنْ ضِرَاءِ الْأَسَدِ مَخْذَرَهُ
 بِبَطْنِ عَثَرَ، غَيْلُ دُونَهُ غَيْلُ^(٣)
 يَغْدو، فَيَلْحُمُ ضِرْغَامِينَ، عَيْشَهُمَا
 لَحْمُ مِنْ الْقَوْمِ مَغْفُورٌ، خَرَادِيلُ^(٤)
 إِذَا يُسَاوِرُ قِرْنَا لَا يَحْلِلُهُ
 أَنْ يُشْرُكَ الْقِرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَفْلُوْلُ^(٥)

(١) وَضَعْتُ يَمِينِي: إِشارةٌ إلى مصافحة النبي بالإسلام، والضمير في أنازعه عائدٌ للنبي. قَبْلَهُ الْقِيلُ: أي قوله صادقٌ فاضلٌ.

(٢) الْمَسْبُورُ: الْحَسْنُ الْمُبْتَدَأُ. مَنْسُوبٌ: أي مسؤولٌ عما نُسبُ إِلَيْكَ.

(٣) الضيغم: الأسد، الضراء، الواحد ضارٌ: أي مفترس. مَخْذَرَهُ: عريته. عَثَرُ: بفتح أوله وتشديد ثانية، وأخره راء مهملة، قال أبو منصور: عَثَرُ موضع وهو ماسدة يعني أنه كثير الأسود. معجم البلدان (٤: ٨٥).

غَيْلُ: أي هلاك ما بعده هلاك.

(٤) يَغْدو: يَبْكِرُ. يَلْحُمُ: يَطْعَمُ لَحْمًاً. مَغْفُورٌ: مَطْرُوحٌ عَلَى التَّرَابِ. الْخَرَادِيلُ، الْوَاحِدُ خَرَدَلُهُ: أي القطعة الصغيرة.

(٥) الْقِرْنُ: الْخَصْمُ. مَفْلُوْلُ: مَكْسُورٌ، مَهْزُومٌ.

مِنْهُ تَظَلُّ حَمِيرُ الْوَخْشِ صَافِرَةٌ
 وَلَا تُمْشِي بِوَادِيهِ الْأَرَاجِيلُ^(١)
 وَلَا يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخْوَ ثَقَةٍ
 مُطَرَّحُ الْبَرُّ، وَالدُّرْسَانِ، مَأْكُولُ^(٢)
 إِنَّ الرَّسُولَ لَسِيفٌ يَسْتَضَأُ بِهِ
 مَهْنَدٌ مِنْ سَيْفِ اللَّهِ مَسْلُولُ^(٣)
 فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ
 بِيَطْنَ مَكَّةَ، لَمَا أَسْلَمُوا: 'زَوْلُوا'^(٤)
 زَالُوا، فَمَا زَالَ أَنْكَاسُ، وَلَا كَشْفُ،
 عَنْدَ الْلَّقَاءِ، وَلَا مِيلَ مَعَازِيلُ^(٥)

(١) الضافرة: الساقنة. الأراجيل، الواحد رجل: الرجل بخلاف الراكب.

(٢) الدرسان، مثنى درس: وهو الثوب المترعرق البالي. ويروى أيضاً: «مطرح اللحم والدرسين مقتول».

(٣) يستضاء به: يهتدى به. المهند: اليف المتسبب إلى اهتدى، وهو أجود السيف عند العرب.

(٤) العصبة: الجماعة. قائلهم: أراد به عمر بن الخطاب رضي الله عنه. زولوا: أي هاجروا من مكة إلى المدينة، وإنما خص قريشاً بالذكر لأن أغلب المهاجرين كانوا منها.

(٥) الانكاس، الواحد منها نكس: وهو الفسيف الجنان. كشف، الواحد أكشف: وهو من لا ترس له يحميه، أو هو الشجاع الذي لا ينكشف في الحرب. ميل، الواحد أميل: وهو من لا سيف له، أو من لا يحسن =

شُمُّ العرانيَنِ، أَبْطَالٌ، كُبُوسُهُمْ
 مِنْ نَسْجٍ دَاوَدٌ فِي الْهِيجَا، سِرَابِيلُ^(١)
 يَبْضُ سَوَابِعُ قَذْ شُكْتُ لَهَا حَلْقٌ
 كَأَنَّهَا حَلْقُ الْفَقْعَاءِ، مَجْدُولُ^(٢)
 لَا يَفْرَحُونَ، إِذَا نَائَلُتْ رِمَاحُهُمْ
 قَوْمًا، وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا، إِذَا نِيلُوا^(٣)
 يَمْشُونَ مَشَيَّ الْجِمَالِ الزَّهْرِ، يَغْصُمُهُمْ
 ضَرَبٌ، إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ^(٤)

= الركوب. المعاذيل: الواحد معزول: وهو الأعزل، من لا يملك سلاحاً.

(١) شم العرانيين، والعرينين: هو رأس الأنف، كناية عن الأنفة والإباء. من نسج داود: أي من صنعه، أي دروعهم داودية الصنع، علامة الجودة والثانية والاتقان، وهي من الدروع المشهورة. السرابيل: الدروع.

(٢) البيض السابع: الدرع. شُكْتُ: أدخل بعض وسُمْرُتْ. الفقعاء: نوع من النبات يتبعط على وجه الأرض له حلق كالخوازم.

(٣) المجازيع، الواحد مجزاع: وهو الشديد المجزع والخوف. يقول: إنهم إذا حفقو النصر لا يفرحون به لكونه من عاداتهم، وإذا هزمهم عدوهم لا يجزعون من لقائهم ثانية لقتلهم بالغلبة عليه.

(٤) ويروى «البِهِم» مكان «الزَّهْر». الزهر: البيض. عَرَد: جبن. التنبيل، الواحد تنبال: وهو القصير. وكعب يعرض في هذا البيت - على حد قوله بعض الشرائح - بالانصار لتحملهم عليه يوم وفدي على الرسول ﷺ.

لَا يَقْعُدُ الظَّفَنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ،

ما إِن لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلٌ^(۱)

لقد استهل كعب قصيده متغزاً واصفاً ثغر حبيته، شاكياً هجرها، وإخلالها مواعيدها، فترى الصور الحسية تراكم في أوصافه ويتبع بعضها بعضاً، ولا سيما تشبيه حلاوة الثغر وبرودته بخمرة خلطت بماء بارد، ثم إلحاقه بوصف هذا الماء ليبالغ في تصوير برودته وصفاته... وأراد أن يصفها بالكذب والأخلاق والفحج والتبديل، فصور أن هذه الصفات متحكمة فيها، حتى أنها قد أصبحت تجري بدمها لا تقدر على مقاومتها. كما يتطرق إلى الحكمة وضرب المثل، كقوله: «وَلَا تُمْسِكُ بِالْعَهْدِ...، إِنَّ الْإِمَانَيْ وَالْأَحْلَامَ تُضليلٌ...، كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ... كُلُّ ابْنِ اثْنَيْ وَانْ طَالْتْ سَلَامَتِهِ... الْخُ». وينتقل بعد ذلك إلى وصف الناقة فيبدع ابداعاً يجاري فيه فحول الشعراء أمثال طرفه وغيره، ويتلاءم بالمعاني تلاغياً ذكياً لم يسبق إليه أحد. وفي هذا القسم أيضاً تكرر الصور المادية، كما تكثر الألفاظ الغربية، فيصف ضخامة عنقه وطوله، وعظم وجنتيها، ونعومة جلدتها، ثم يشبه وجهها في صلابته بمعول من حديد أو حجر

(۱) حياض الموت: موارد الاحلاك. التهليل: الجبن والفارار. يقول: لا يقع طعن الأعداء في ظهورهم لأنهم لا يفرون من القتال كما ليس هم جبناء حتى يتأخروا عن موارد الردى.

مستطيل، وذنبها بجريدة النخل، وقوائمها بالرماح الصلبة. وهي في سرعتها لا تمس الأرض إلا مسأً يسيراً. كما يحلف الإنسان ليفعلن هذا الشيء فيفعل منه اليسير ليتحلل به من القسم. وهي لا تحتاج إلى تعديل يقيها الحجارة لصلابة أخفاها. ويصف حركة ذراعيها وسرعة تقلبها، فيرينا صورة مادية رائعة لم يُسبق إليها، ويستطرد معها إلى وصف شدة الحرّ. وينتقل بعد ذلك إلى مدح النبي والاعتذار إليه، ومدح المهاجرين من قريش. وفي هذا القسم من القصيدة ترق الفاظه، ويقل غريبه إلا في وصف الأسد، فمثله كمثل أيّ شاعر جاهلي يجعل لكل مقامٍ مقلاً، فإذا تغزل أو استعطف أو رثى رقت عاطفته ورقت ألفاظه، وإذا افتخر أو مدح اشتتد عاطفته، وجزلت ألفاظه واشتد أسرها. وإذا وصف ناقته والقفار الموحشة والسبع الضارية، خشت عاطفته، وخشت معها ألفاظه. كما نرى أن كعباً مدح الرسول بأسلوب جاهلي صرف، دون أن يشير إلى فرض من فروض الدين الإسلامي، أو إلى آية من القرآن؛ ذلك بأنه كان يجهل حقيقة الإسلام يوم نظم قصيده، وهو لم يسلم إلارهبة وفرق^(١)؛ ولا عجيب أن يشبه الولد أباه فيكون له خاصة أبيه زهير في براعة التشبيه والتوصير الحسي، وله خاصته أيضاً في إرسال الأمثال

(١) فرقاً: خوفاً ورعباً.

الحكمية. ونكون من المنصفين اذا قلنا: إن زهيراً وكعباً والخطيئة يتخلون مذهبآً أديباً ذا صبغة واحدة. على أننا قد نجد في شعر كعب كثيراً من اللفظ الغريب، وقد عزاه الدكتور طه حسين إلى أن كعباً قد قلد فيه استاذ أبيه وعني به أوس بن حجر، ولعله مصيب برأيه، فإن والده زهيراً كان راوية أوس وعنه أخذ أسلوبه الوصفي وما فيه من التشابه والصور المادية. وكان أوس جاهلياً قديماً يؤثر اللفظ الغريب في شعره. فجاء شعر كعب وعليه طابع المذهب الزهيري، أو المذهب الأوسي، مع إثمار الغريب من الألفاظ تشبهاً بأستاذ أبيه. ونخلص إلى القول: إن في أبيات المدح عند كعب كما في غيرها في شعره من تأثير المذهب الزهيري الأوسي، فالصور المادية قوية صارخة، ولا سيما تشبيه النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه بالأسد، ثم وصف هذا الأسد وصفاً فصصياً عرفناه عند زهير من قبل، ان كعباً كأبيه زهير يهذب شعره ويستقي ألفاظه، ويتحير معانيه، كما تظهر لنا حكمة زهير في قوله: «وكل ابن انتي وإن طالت سلامته...» وما أجمل التصوير رغم بدأوة المعنى في وصفه هيبة الرسول، وما يستولي من الفزع على المائل في حضرته. وكأنني بالشاعر أراد الاعتذار من خوفه فلم يجد غير الفيل الضخم مثلاً للجرأة فقال: لو وقف الفيل موقفني ورأى ما رأيت، وسمع ما سمعت، لظل يرعد خوفاً وهلعاً، فلا لوم

عليٌ إذا هبَّتُ الرسولَ فهو أهيبٌ عندِي منْ أسدٍ في بطن
عَثْ^(١) كثير الصيد، شديد الضرواة. إن في هذا الاعتذار،
وفي ذلك التمثيل سذاجة جاهلية خشنة، ولكنها مع ذلك
لطيفة مستحبة. ويبقى علينا أن نذكر أن هذه القصيدة هي من نوع
المشوبات^(٢) وهي القصائد التي شابها أي خالطها الكفر
والاسلام.

(١) عَثْ: مأسدة: مكان كثير الأسود.

(٢) المشوبات، مفردتها مشوبة.

آثاره

أما آثار كعب، فتتمثل في قصائد متفرقة وأبيات منشورة هنا وهناك في كتب الأدب، وقد جمعت في ديوان يحمل اسمه، ولا يتجاوز عدد صفحاته المئة وعشرون صفحات، أما موضوعات شعره فهي كغيرها من موضوعات الشعر الجاهلي، تتراوح بين الفخر والمدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف وبعض الحكم، إلا أنها يمكن أن نجد في شعره اتجاهين متبابعين، لأن اسلام كعب قد غير في نهج شعره، وأمده بكثير من صور، ورقق ألفاظه ومعانيه حيث كان كعب في الاتجاه الأول - أي قبل الاسلام - يميل إلى الشدة والتقرّر وخاصة في وصف الصحراء وحيوانها، بينما في الاتجاه الثاني - أي بعد الاسلام - نراه يميل إلى إرسال الحكمة وإلى الابتعاد عن الموضوعات الجاهلية، وأشهر قصائده على الأطلاق لاميته «بانت سعاد» التي تعدّ من المشوبات^(١) وقد كثر محسمو لامية كعب ومشطروها ومعارضوها وشرحها، كما ترجمت إلى الإيطالية، وقد عني بها المستشرق رينيه

(١) المشوبات: مفرداتها شوبة وهي القصيدة التي شابها أي خالطها الكفر والإيمان ..

باست^ر René Basset ، فنشرها مترجمة إلى الفرنسية
ومشروحة شرحاً جيداً، وصدرها بترجمة لكتاب وحياته، كما
أطلق عليها اسم «البردة» لأنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام
عند إلقاء كعب هذه القصيدة بين يديه خلع عليه بردته،
فالمسألة إذاً ليست في أن يكون الشعر مقلاً أو مكثراً، وإنما
العبرة فيما أنتج من شعر جيد، ومهما يكن من أمر، فلکعب
قدم راسخة في ميدان الشعر، وصيَّتْ ذاتُهُ منْذُ أيام
الجاهلية، حتى أنَّ الحطينة رجاء أن يذكره في شعره كما مرَّ
معنا.

مميزته: إنَّ كعباً كأبيه زهير يهذب شعره، ويستقي الفاظه،
ويختبر معانيه، فهو يتخلَّل القوافي - أي القصائد - ويشقها،
ولا عجب فالولد سُرُّ أبيه، فلکعب براعة أبيه في التشبيه
والتصوير الحسي، وله خاصته أيضاً في إرسال الأمثال
الحكمة. وقد تكون قد وضعنا الأمور في نصابها إذا قلنا أنَّ
زهيراً وكعباً والحطينة يتحولون مذهبَاً أدبياً ذا صبغة واحدة.
على أننا نجد في شعر كعب كثيراً من اللفظ الغريب، وقد
عزاه الدكتور طه حسين إلى أنَّ كعباً قلد فيه أستاذ أبيه أوس،
وعنه أخذ أسلوبه الوصفي وما فيه من التشابيه والصور
المادية. وكان أوس جاهلياً قديماً يؤثر اللفظ الغريب في
شعره. فجاء شعر كعب وعليه طابع المذهب الزهيري، أو

بالأصح المذهب الأوسي على رأي الدكتور طه حسين، مع إيثار الغريب من الألفاظ تشبهها بأستاذ أبيه أوس بن حجر. فنحن إذا الآن أمام مذهب ندعوه زهيريًّا أو أوسيًّا إذا ذهنا إلى أبعد من زهير.

منزلته: قيل لخلف الأحمر: زهير أشعر أم ابنه كعب؟ قال: لولا أبيات لزهير أكبرها الناس لقلتُ أن كعباً أشعر منه. كما عده ابن سلام في الطبقة الثانية قبل الحطيئة. ولو جاز لنا أن نبني حكماً صحيحاً على شعره، لقلنا إن له من البراعة والتصرف في المعاني ما يضعه في مصاف أفحى الشعراء الجاهليين. وحسبنا أن نشير إلى تفنته في وصف الماء بعد أن مزج به الخمرة التي علَّ بها ثغر سعاد، ثم إلى تفنته في وصف حركات المرأة التكلى بعد أن شبه ذراعي ناقته بذراعيها في السرعة والتقلب، ثم إلى إلحااحه في وصف ضراوة الأسد بعد أن فضل الرسول عليه في الهيبة. نعم حسبنا أن ننظر إلى ذلك لتتبين منزلة الشاعر السامية، وبراعته في سوق المعاني والتلاء بها وبالالفاظ، والغوص على دررها البعيدة القرار، وقصاري القول: إن كعباً شاعر مفظور بارع في فنه، ورسامٌ بديع التصوير، ومخترعٌ واسع المخيلة والحيلة، وأحد أساتذة المذهب الذي صفى الشعر ونقحه وهذبه.

شعره الحكمي

الحكمة في شعر كعب ليست أمراً طارئاً عليه أو هي مستبعدة من أن تصدر عن مثله، فهو ابن زهير بن أبي سُلْمٍ الشاعر الذي زخرت معلقته بكثير من المواعظ والحكم، كما أن مذهب المدرسة التي ينتهي إليها اشتهر كذلك بالروية والتقييع وإجالة النظر، وهل الحكمة إلا نتاج التأني والتأمل والصبر، إذاً فليس غريباً أن يشمل ديوان كعب على حكم كثيرة مبثوثة هنا وهناك في ثناياه، وأكثرها يمثل مقطوعات صغيرة مستقلة يبدو عليها أثر الاسلام واضحاً، إذ يستفيد كعب من تعاليم دينه الجديد كثيراً من الآراء، ويستمد منها ما يخفّف عن نفسه غير الدهر وصروفه التي أوجعت قلبه ولوحته ب Nirān al-himma wal-faqha، فإذا بشعره الحكمي يتحوّل إلى نفحات خالدة ينفتحها كلُّ من يكابد من دهره ما كابده كعب منه، فهي مستلة من الذات، ومشبعة بتعاليم المدرسة الاسلامية التي هي صوت لا ينقطع، ونبع لا يصمت عن الدفقان، يقول كعب:

لو كنت أعزب من شيء لأعجبني
سفي الفتى وهو مخبأ له القدر

يسعى الفتى لأمور ليس يدركها
 والنفس واحدة والهم منتشر
 والمرء ما عاش ممدوّ له أمل
 لا تنتهي العين حتى ينتهي الأثر

فالتعاليم الاسلامية في هذا الشعر واضحة كلَّ الوضوح،
 وهي تشعرنا كيف يسلُّم كعبُ بقضاء الله وقدره، كما تشعرنا
 مدى تغلغل الاسلام في روح كعب ونفسه، والذي استطاع
 أن يقضي فيها على نزعاتها الجاهلية ويحوّل نعمتها على
 الحياة إلى أمل، بعطاء الله وفرجٍ قریبٍ من رحمته الواسعة.

وهكذا نرى كعب في كلِّ أشعاره الحكمة يستند زادها
 من الاسلام حيث يوكل أمره إلى الله الذي وحده يتکفل
 العباد، ويمنَ عليهم بالرزق والنعمة والافضال، يقول كعب:

أعلمُ أني متى ما يأْتني قدرِي
 فليس يحبّه شُؤْ ولا شفْقٌ
 بينما الفتى معجبٌ بالعيش مغتبطٌ
 إذا الفتى للمناسيا مُشْكِمٌ غلُّ
 والمرءُ والمال ينْمِي ثُمَّ يذْهَبُ
 مرُّ الدهور ويفنيه فينسحق

فلا تخافي علينا الفقر وانتظرى
 فضل الذي بالغنى من عنده نثق
 ان يفْنَ ما عندنا فالله يرزقنا
 ومن سوانا ولسنا نحن نرتزق

ففي هذه الأبيات يقترب كعب من أن يكون واحداً من زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر الشخص منهم في رزق غد، بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغفر، لأن رب العباد مكفل برزقهم، وليس عليهم إلا أن يستلموا أمرهم له، فهو القادر على أن يرزقهم وسواهم من الناس قاطبة.

ويمضي كعب في أشعاره الحكيمية محملأً لها ما شاء من تعاليم الإسلام التي تدعو إلى التوكل على الله في كلّ أمر، والسعى الدائم الذي لا يبعد المرأة عنه خوف من أذى أو مكروه، لأن كلّ شيء يحدث للمرء بمشيئة من الله وأمر من قضائه العادل، يقول كعب:

فأقسمت بالرحمن لا شيء غيره
 يمين امرئٌ بسر ولا أتحلل^(١)

(١) لا أتحلل: لا استني.

لاستشعرن أعلى دريسي مسلماً
 لوجه الذي يحيي الأئم ويقتل^(١)
 هو الحافظ الوسان بالليل ميتاً
 على أنه حيٌّ من النوم مثقل^(٢)
 من الأسود الساري وإن كان ثائراً
 على حد نابيه السماء المثلل^(٣)
 ويدلُّ ديوانه، كما يدلُّ تأخره في اسلامه على أنه كان فيه
 شرُّ كثير، إذ نراه دائمًا في شعره الجاهلي مفاخرًا متوعداً
 مهدداً، حتى إذا أسلم، أخذت نفسه تصفو وتخلص مما
 علق بها من أدران الجاهلية وعصبياتها، وأخذ يستشعر معاني
 الاسلام الروحية، وما دعا إليه من الاخلاق الفاضلة والقيم
 السمحاء، حتى لراه يترفع في هجائه عن السخط والسباب
 وذكر المثالب ويميل فيه إلى الصفع الجميل، ويكثر من
 الحكم والمواعظ التي يريد منها الاقناع وكف الأذى،
 والابتعاد عن المهاترة فاسمعه يقول:
 إن كنت لا ترهب ذميًّا لما
 تعرف من صفحني عن الجاهل

(١) التربس: اللوب البالي، كنى بذلك عن حسن إسلامه وتوكله.

(٢) الوسان: النائم.

(٣) الاسود: الأفعى السامة. والسارى: الذي يسر ليلًا. المثلل: المجمع.

فاخش سكوتِي إذا أنا منصٌ
 فيك لمسموع خنا القائل^(١)
 فالسامع الدَّام شريك له
 ومطعم المأكول كالأكل
 مقالة السوء إلى أهلها
 أسرع من منحدر سائل
 ومن دعا الناس إلى ذمه
 ذمته بالحق وبالباطل
 ولا تهنج إن كنت ذا إربة
 حرب أخي التجربة العاقل^(٢)
 فإن ذا العقل إذا هجته
 هجت به ذا خبلٍ خابل^(٣)
 فكعب كما نرى ينهى المسيء الذي يتناول الناس بلسانه
 عن فعله لأن ذلك في كثير من الأحيان يرتد عليه هجاءً مرآ
 ومقدعاً، فبناء النفوس وإصلاحها أمرٌ صعب، بينما الافساد
 في الأرض سرعان ما يتنتشر كما تنتشر النار في الهشيم.

(١) الخنا: الفحش في القول.

(٢) الاربة: الدهاء.

(٣) خبل: الفساد في العقل، والخابل: المعسوس.

وهكذا نجد كعباً في كلّ شعره الحكمي يتمثل المعاني
الاسلامية ويتأدب بأدابها التي نراها تحدث تغييراً هاماً في
نفسيه وسلوكه كما تحدث تغييراً واضحاً في شعره الذي
يميل فيها إلى السلامة واللين ، والابتعاد عن غلظة العجahlية
وجفافها .

الفخر والحماسة في شعره

رأينا، كما يرى مؤرخو الأدب، أن نجعل الفخر والحماسة باباً واحداً لما بينهما من الاتصال الوثيق، لأن الحماسة ليست سوى فخر الفارس ببطوله وذكر وقائمه ووصف فرسه وسلاحه. وباب الفخر في الجاهلية، وإن اتسع إلى موضعات غير الفروسية كالنسب والسيادة والكرم والأخلاق والأهل، والولد والفصاحة، لا يخلو أصلاً عن المباهات بالشجاعة والآقدم. فالفخر والحماسة توأمان متلازمان، فلا فخر بدون حماسة، وكذلك الحماسة هي الفخر بعينه. ويحسن بالفروسية أن يرافقها شرف المحتد ومكارم الأخلاق، وشعر الفرسان يستعمل على جميع الفضائل الجاهلية، وأخصها فضيلة الفروسية، حيث ينصرف الشاعر إلى ذكر حروبه مبالغًا في وصف البطل الذي يبارزه ويسطرو عليه، أو وصف المعركة التي يخوض غمارها ويلقي بنفسه في مهالكها.

ويحدث عن القتلى والأسرى والسبايا والغنائم، فلا يخلو حديثه عن تكثير أو غلوٍ. والتکثُر والغلو من أهم خصائص شعر

الفروسيّة، حيث يجعل الشاعر منهم الواقعه الصغيرة تبدو وكأنها ملحمة كبيرة، والعدد القليل من الرجال يبدو جيشاً عرماً، والنفير القليل من القتلى يعد بالمئات والألف. على أن غلوهم لم يأت مستقبحاً، وهو ولد العاطفة المتحمسة التي تجعله قريباً محبياً إلى النفس، والفطرة الساذجة التي تعطيه مسحة من الجمال الجذاب الذي يخالف الحقيقة ويصدق في شعوره الفني، ويجري مع الطبع في نشوة الخاطر المتدقق، لا يهيه العقل عمداً في يقظة الفكر المتكلف. والشعر الحماسي كسائر الشعر الجاهلي، يعتمد في الأكثر والأعم على الوصف، وفي الأقل على القصص، وهو مع كل ذلك وفي كلا الحالين يؤثر الإيجاز على التطويل، ويلمح الجزئيات دون الكليات، ويتعلق بالمادة أكثر من الروح. فلو أراد أن يصف معركة مثلًا اجتنأ ببعضه أبيات تربينا جواده وسيفه ومضات من البرق جميلة في سرعتها وتلويناتها. غير أنها لا تخرج منها بفكرة عامة أو صورة تامة عن الواقعه، فما ندرى كيف جرت حركات المتحاربين، وكيف انتظم الجيшиان، وأين وقف الفرسان، وأين وقفت بقية الفرق كالرجاله ورُمَّة السهام والبَالَّة، وكيف اتم الهجوم والالتحام. ولا نكاد نسمع من الأصوات إلا غمامغم يختلط فيها وقع السلاح، وصباح الفرسان، وحمامة الجياد،

ودقة الحوافر، ولا نرى من صفات السلاح إلا سيفاً قاطعاً،
ورمحًا طويلاً، ودرعاً سابعة، وقليلاً ما يسهب الشاعر ويدقق
في أوصاف السلاح كما يسهب ويدقق في نعوت جواده ونعت
الفارس المقاتل أو الخصم. على أن صورة الفارس لا تظهر
في الغالب جلية، بل يتركها غامضة مغشاة مشوشاً، ويعطينا
المعركة على الاجمال تهافت مقطعة الخطوط والأوصال لا
يتتألف من أجزائها وحدة موضوعية متلاحمة. فهذا كعب
يبحث فتاته على السؤال عن مشهدہ بیعاث، وهو موضع في
نواحي المدينة كانت به وقائع بين الأوس والخزرج في
الجاهلية، حيث تقدمت إليه غسان بالسيوف القواطع والرماح
البواتر، وها هو يفخر بنفسه قائلًا: إنه أمرؤ يلزم الحياة
ويحفظه، وشيمته كرم الطبيعة، وتجنب الفحش في الكلام،
ويفخر أيضًا بقومه، فهو من معشرِ فيهم السادة النجباء،
ولبيث غاب تضطرمُ الحرب، يعلون بالدروع ويجلون بكل
فارس مقدم يفت على الملوك ويصلح بين القبائل، مثل
الشهاب حين يتقد بالشجر الصلب الذي يبقى زمناً لا
ينطفئ :

هَلَا سَأَلْتَ وَأَنْتَ غَيْرُ غَيْبَةٍ
وَشِفَاءٌ ذِي الْعِيْ السُّؤَالُ عَنِ الْعَمَى

(۱) غيبة: عجز عن النطق بالكلام، فلم يستطع بيان مراده منه.

عن مشهدِي يُعاثَ إذ دَلَفتْ لَه
 غَسَانٌ بِالبيضِ القواطعِ والقنا^(١)
 ... إني امروأ أقني الحياة وشيمتي
 كَرَمُ الطَّبِيعَةِ والتَّجَنُّبُ لِلخَنَا^(٢)
 من معاشرِ فِيهِمْ قُرُومٌ سَادَةُ
 وَلَيُوْثُ غَابٌ حِينَ تَضُطَّرُمُ الرَّوْغَنِ^(٣)
 وَيَصُولُ بِالْأَبْدَانِ كُلُّ مُسَفِّرٍ
 مثُلَ الشُّهَابِ إِذَا تَوَفَّدَ بِالْغَصَّا^(٤)

وها هو أيضاً يفخر بقومه مُزينة وبني خفاف يوم وج أي
 الطائف حيث صبحوا أهل الحَبَلَق وهي أرض تسكنها قبائل
 مِنْ مُزينة وقيس، بآلف من سليم وألف من بنى عثمان
 فأوسعوهم ضرباً بالسيوف، وطعنًا بالرماح، ورمياً بالسهام،
 وقد اشترك منهم في هذه المعركة الشُّبَانُ والشَّيْبُ، وهم

(١) بعاث: موضع في نواحي المدينة كانت به وقائع بين الاوس والخزرع في الجاهلية. دفعت، تقدمت. البيض: السيوف.

(٢) أقني الحياة: ألمزمه وأحفظه. الخنا: الفحشر في الكلام.

(٣) القروم: السادة.

(٤) البدان: الدروع. المسفر: الذي يقد على الملوك ويصلح بين القبائل.
 الغضا: شجر من الإيل خشب من أصل الخشب وجره يبقى زمناً طويلاً لا ينطفئ.

يعتلون صهوات الجياد **الجُرُد** أي القصيرة الشعر لكثره
استخدامها في المعارك، وقد غنموا إلى جانب الغنائم العينية
الأجر والثواب، وأما خصومهم فرجعوا نادمين على مخالفتهم
رسول الله ﷺ حيث يقول:

نَفَى أَهْلُ الْحَبْلَقِ يَوْمَ وَجْ
مُزِينَةً جَهْرَةً وَبَنُو خُفَافٍ^(١)
صَبَخَنَاهُمْ بِأَلْفِ مِنْ سُلَيْمٍ
وَأَلْفِ مِنْ بَنِي عُثْمَانَ وَافٍ^(٢)
خَدَوْا أَكْتَافَهُمْ ضَرْبًا وَطَفَنَ
وَرْمِيًّا بِالْمُرَيْشَةِ الْلَّطَافِ^(٣)
رَمِينَاهُمْ بِشَبَانٍ وَثِيبٍ
تُكْفِكِفُ كُلُّ مُمْتَنِعٍ الْعِطَافِ^(٤)
تَرَى الْجُرْدَ الْجَيَادَ تَلُوحُ فِيهِمْ
بِأَرْمَاحٍ مَفْوَمَةِ الشُّقَابِ^(٥)

(١) **الحَبْلَق**: الغنم الصغار، أو الأرض التي يسكنها قبائل مزينة وقبيل وقبيل الطائف.

(٢) **بنو عثمان**: من مزينة. **الوافي**: النام.

(٣) **حدوا**: تبعوا. **المريشة**: السهام.

(٤) **العطاف**, **الواحد عطف**: جانيا الرجل من رأسه إلى وركه.

(٥) **الجرد**: الخيول القصيرة الشعر. **مفوممة النقاد**: أي مفوممة التقييف، والثقاف حديدة يقوم بها الشيء المعوج.

ورُحْنَا غانمِينَ بما أَرَدْنَا
 وراحوا نادِمِينَ على الْخِلَافِ^(١)
 فجُزِنَا بَطْنَ مَكَّةَ وامتنعنا
 بتقوى الله والبيضِ الخفافِ^(٢)
 أرادُوا اللَّاتَ والعزَى إِلَهًا
 كفى بالله دُونَ اللَّاتِ كافِ^(٣)
 وهذه القصيدة من إسلامياته قالها في يوم فتح مكة وفي
 غزوة حنين والطائف وكُنْ في غزوة واحدة غزا هنَّ
 النبي ﷺ^(٤).

وهذه قصيدة أخرى يفخر فيها بنفسه وبآيه. وكان كعب قد
 استجاب لطلب الحطيثة وذكره في شعره « فمن للقوافي»
 ولكن لم يذكر مزراً بن ضرار فغضب هذا الأخير وقال أبياتاً
 في كعب منها:

(١) أراد: غنمِنا من مخالبِهم الأجر والثواب، أما هم فراحوا نادِمِينَ على
مخالفتهم لرسول الله ﷺ.

(٢) جزنا: قطعنا. البيضُ الخفاف: السيفُ السريعةُ العمل.

(٣) اللات: صخرة مربعة شاعت عبادتها في الطائف. العزى: إحدى آلهة
الجاهلية عبدُها العرب قبل الإسلام إلى جانب اللات ومنة.

(٤) وفِيلَ أن هذه القصيدة لبعير بن زهير شقيق كعب وحجنهم في ذلك أن
كعباً أسلم بعد منصرِف النبي ﷺ من الطائف.

فياستك إذا خلقتني خلف شاعرٍ
 من الناس لم أكفيه ولم أتنخل
 فقال كعب هذه الأبيات في معرض الرد عليه:
 ألا أبلغها هذا المعرض أنه
 أيقظان قال القول إذ قال أم حلم
 فبان تسأل الأقوام عنِي فإنني
 أنا ابن أبي سلمى على رغمِ منْ رغمِ
 أنا ابنُ الذي قد عاش تسعين حجة
 فلم يُخْرِز يوماً في مَعْدَه ولم يُلْمَ^(١)
 وأكرمه الأكفاء في كل عشرِ
 كرام فإن كذبتي فاسأله الأئمَّة
 أتى العُجمَ والأفاق منه قصائد
 بقين بقاء الونحى في الحجر الأصمَّ
 أنا ابنُ الذي لم يُخْرِزني في حياته
 ولك أخْرِه حتى تغيب في الرَّجْم^(٢)
 فأعطي حتى مات مالاً وهمة
وورثني إذ وَدَعَ المجدَ والكرَمَ

(١) المعروف أن زهيراً ولد في نجد نحو ٥٣٠ م وتوفي نحو ٦٢٧ م. مَعْدَه: جد جاهلي منه بعض القبائل العربية التي نشأت في شمال جزيرة العرب.

(٢) الرَّجْم: القبر، اللحد.

وكان يُحامي حين تنزل لزبة
 من الدهر في ذبيان إن حوضها أنهدم^(١)
 أقول شيمات بما قال عالماً
 بهن ومن يُشبة أباه فما ظلم
 ويأتي بفخره على ذكر أهله وعشيرته من المزنين فيقول:
 أغيرتني عزاً عزيزاً وعشراً
 كراماً بنوا لي المجد في باذخِ أشم^(٢)
 هم الأصل مني حيث كنت وأنتي
 من المزنين المصفين بالكرم
 هم ضربوكم حين جرتم عن الهدى
 بأسافهم حتى استقمتم على القيم
 وسأقتل منهم عصبة خندفية
 فاللئك فيهم قيد كف ولا قدم^(٣)
 هم منعوا حزناً العجاز وسهلة
 قدماً وهم أجلو أباك عن الحرم^(٤)

(١) اللزبة: الشدة. قوله: إن حوضها انهدم، أي إن ناحا سوه أو ألت بها ناثة.

(٢) الباذخ الاسم: الشامخ الرافع الرأس.

(٣) خندفية: نسبة إلى خندف امرأة الياس بن مضر، وخدفت الأم في ثراه (أي هرولت)، أراد لا كف له يقود بها أرمنهم ولا قوم له في رياستهم.

(٤) الحزن: ما غلظ من الأرض.

هم الأسدُ عند البأس والحسدُ في القرى
 . وهم عند عقدِ الجارِ يُوفونَ بالذمم^(١)
 فنكمْ فيهمْ من سيدٍ متّوسِعٍ
 ومن فاعلٍ للخير إن هم أو عزّم
 متى أدعُ في أوسٍ وعثمانَ يأتني
 مساعرُ حربٍ كُلُّهمْ سادةٌ دعم^(٢)

المدح في شعره:

المدح في الجاهلية من الأبواب الرئيسية لاتصاله بالحياة
 القبلية. فقد كان على الشاعر الجاهلي أن يدافع عن قومه
 وأعراضهم، ويمدح ساداتهم وفرسانهم، ويطرى فضائلهم
 ويمجد أعمالهم وبطولاتهم، ولذلك كانت القبيلة تغتبط
 وتستبشر إذا نبغ فيها شاعر، وإن لم يكن هذا الشاعر من
 الفرسان، لأن حماية الأعراض والأحساب لا تقل شأنًا عن
 حماية الأرواح والأموال.

والشاعر الجاهلي مضطرب كغيره من البدو إلى الترحل
 والتزول على قبيلة غريبة، ضيفاً أو جاراً، فتحسن هذه

(١) القرى: الضيافة. يوفون بالذمم: يوفون بهمودهم لمن يستجير بهم.

(٢) أوس وعثمان: ولدا عمرو بن آدم، وأمهما مزينة بنت كلب بن وبرة.
 المساعير: الذين يوقدون الحرب ويسخونها. الدعم، الواحدة دعامة: ما
 يدعم بها البيت والبناء، أراد أنهم يوكل إليهم جليل الأعمال وعظمتها.

وفادته، وتبالغ في فراغ وإناسه وإكرامه، أو تجبره وتؤمنه من خوف، وتساعده على قضاء حاجته، فيرى أن من واجبه أن يشكر لها صنيعها، فيمدح السيد الذي أضافه أو أغاثه ، وهذا طبعاً لا يعد من باب التكسب، وإنما هو شكر على معروف، لا استجداء لصلة أو عطاء ، ولم يُعرف التكسب بالمدح إلا عندما أخذ الشعراء ينزعون عن قبائلهم ويتربدون في الأصقاع والأحياء الغربية ، ويقرعون أبواب الملوك والسوقة، مادحين مستجددين ، هاجرين من لا يحسن لهم العطاء ، حيث هبطت منزلة هؤلاء الشعراء القبليين الذين أتوا أن يقبلوا الصلة ويريقوا ماء الوجه .

على أن المدح ، وإن صار إلى التكسب الدنى ، في أواخر العصر الجاهلي ، فقد كان تأثيره عظيماً في الأشخاص والقبائل ، يرفع شأن الخامل ، وينشر ذكره بين الناس ، وإن التجاء طلاب السيادة إلى الشعراء في مفاخراتهم دليل على ما للشعر من الأثر البليغ في النفوس ، وقد يختلف الشعراء في مبالغتهم بين مقل ومكثر ، ولكنهم لا ينحوون بحال من الأحوال إلى المحال ، لأن طبع البدوي في صفاته ونقائه يتفر من الغلو المستقبح أو المستحيل إلا إذا رانت عليه العاطفة في حزن أو حماسة ، فتخرج عندي هذه العاطفة به إلى غاية الإغرار حتى تؤدي به إلى الكذب في بعض الأحيان ، وحتى هذه

المغاليات كانت مأئونة في المفاحر والمرانى أكثر منها في المدائح؛ ولكن تحول الشعر إلى التكبس جعل الشعراً يبالغون في تعظيم الأشراف والملوك، تملقاً لهم واستدراراً لا كفهم، ورغم هذا لم تكن السذاجة الفطرية تعدو تصوراتهم، ولا يختلف مدح الملوك في اعتماد الفضائل عن مدح السادات، لأن ملوك الشام والعراق لم يتعدوا بذهنيتهم وأفكارهم عن سيد القبيلة، وإن أصابوا طرفاً من الحضارة. فالمدح الذي يصلح لصاحب القبة الحمراء، يصلح أيضاً لأمير چلق والبريس، ولرب الخورنق والسدير^(١).

وكان ملوك غسان ولخم يقربون شعراً البدية، ويجزلون لهم الصلات ليتغنووا بعظمتهم في الأحياء القرية والبعيدة، فيتمكن بذلك سلطانهم في نفوسها، وينبسط نفوذهم على عشيرتها، لأنهم كانوا يحتاجون إلى مؤازرتها في حروبهم واقتصادياتهم، وحراسة قوافلهم، فقضت عليهم السياسة بتقرب شعرائها وإكرامهم للاستفادة من مدائهم، كما قضت عليهم بذلك ذهنية البدوي في ارتياحه إلى الحمد والثناء، فمدحهم الشعراً مثل مدحهم لسادات قبائلهم، وأصفوا عليهم سوابع الأوصاف التي تعودنا سمعاً لها منهم تحت الخيام.

(١) الخورنق والسدير: قصران للنعمان.

وكذلك المدح الديني ووصف الحفلات في الأعياد الكبرى، ويخلل المدح الحضري الأخبار والأساطير، فتستدل بها على الثقافة التي اكتسبها شعراء البدو في رحلاتهم إلى المدن والأماكن، ومخالطتهم للشعوب المتحضرة.

ومما يُذكر للشاعر الجاهلي أنه حافظ على كرامته في مدح الملوك والساسات، فلم يتذلل لهم وهو في أشد الحاجة إلى رفدهم ومعرفتهم.

وكان الشعراء في الجاهلية يستهلون مدائحهم، في الغالب، بذكر الديار الخالية وهو ما عُرف بالوقوف على الأطلال، كانوا يقفون عليها للبكاء أو للتحية والسؤال، معددين المواقع التي توصل إليها، أو تحيط بها، متशوقين إلى أحبتهم يوم كانوا يسكنوها ويعمرونها، مشيدين بهم، مستعدين ذكرى فراقهم، ثم يرحلون على ناقتهم مفرجين همهم، فاقددين إلى الممدوح، فيصفونها عصواً عصواً وصفاً دقيقاً، يصورون سرعتها ونشاطها، ثم يتقللون إلى المدح بعد هذه المقدمة التقليدية التي تلزم الممدوح أن يراعي حق الشاعر في قصده إليه دون غيره من مكان بعيد يعاني السهر والنصب، وسير النهار وسرى الليل، ولفع السُّموم، وربما

عند الشاعر إلى ناقته فجعلها تتظلم شاكية مما يجشمها من
مشقة الأسفار وتحمل أهواه ومخاطرها.

وقد تلوم المرأة زوجها والبنت أباها على كثرة أسفاره
وترحاله، خائفة عليه، وقد تكون المرأة رفيقة له في السفر
وطلب الرزق.

لم يخرج كعب في مدحه عن هذا النهج في بناء قصيده،
إلا أنه لم يُعرف عنه أنه كان من تكسيبا بشعراهم، وقد مرّ
معنا قصيده التي مدح فيها الرسول ﷺ، (بانت سعاد)
ومدحه للأنصار، (من سرّه كرم الحياة).وها هو يمدح عليناً
ابن أبي طالب، في قصيدة طويلة مطلعها: (هل حبل رملة)
سار فيها على النهج الجاهلي المتعارف عليه، والذي تحدثنا
عنه آنفاً، حيث يقول:

إِنَّ عَلَيَا لَسْمِيمُونَ نَقِيبَتَهُ
بِالصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَفْعَالِ مَشْهُورٌ^(١)
صِهْرُ النَّبِيِّ وَخَيْرُ النَّاسِ مُفْتَخِرًا
فَكُلُّ مَنْ رَامَهُ بِالْفَخْرِ مُفْخُورٌ

(١) النقيبة: السجية والطبيعة.

صَلَى الطَّهُورُ مَعَ الْأُمَّيِّ أَوْلَاهُمْ
 قَبْلَ الْمَقَادِ وَرَبُّ النَّاسِ مَكْفُورٌ^(١)
 مُقاومٌ لِطُغَاءِ الشَّرِّكِ يَضْرِبُهُمْ
 حَتَّى اسْتَقَامُوا وَدِينُ اللَّهِ مَنْصُورٌ^(٢)
 بِالْعَدْلِ قَمَتْ أَمِينًا حِينَ خَالَفَهُ
 أَهْلُ الْهُوَى وَذُوو الْأَهْوَاءِ وَالْزُّورُ
 بِاَخْيَرِ مَنْ حَمَلَتْ نَفْلًا لَهُ قَدْمٌ
 بَعْدَ النَّبِيِّ لِذِنْبِهِ الْبَغْيِ مَهْجُورٌ
 أَعْطَاكَ رَبُّكَ فَضْلًا لَا زَوَالَ لَهُ
 مِنْ أَيْنَ أَئِنْ لَهُ الْأَيَّامُ تَغْيِيرٌ

الهجاء في شعره:

والهجاء كالمدح بباب رئيسي متصل بسياسة القبيلة وحياتها الاجتماعية، لأنها كانت تدفع شاعرها إلى الذود عن أعراضها، والرد على الشعراء الذين يهجونها أو يحاولون النيل منها، فينشر مثالب^(٣) أعدائها، معدداً انكساراتهم.

(١) الطهور: أراد عليه السلام . الامي: النبي محمد ﷺ أراد أن علياً كان أول السابقين إلى الإسلام .

(٢) حتى استقاموا: أي ثابوا إلى رشدهم .

(٣) مثالب: معایب .

وكان على الشاعر أيضاً أن يذود عن حلفاء قبيلته لما بينهم وبينها من تبادل متفعة في الدفاع المشترك، وإذا استجار شاعر بقبيلة واعتدى عليه، عُنفها وهجها ليحرضها على أخذ حقه، لأنه يعلم حق العلم أن الجوار مقدس عندهم لا يجوز انتهاكه أو التفريط فيه، كما فعل كعب عندما خرج أخيه بجير والخطيبة ورجل من بني بدر في رحلة صيد وهم عَزَلُ من السلاح، فلقاهم زيد الخيل في عدّة، فأخذهم ولكنه خلى سبيل الخطيبة لفاقتـه وفقره. وافتدى بجير نفسه بفرس كميت، قيل إنها لأخيه كعب، وافتدى البدري نفسه بمائة من الإبل، فلما بلغ الخبر كعباً، وكان يومها يتزل في بني ملقط، قال هذه الأبيات يحرضـهم على أخذ الكميـت من زيد:

فيـا راكـبا إـما عـرـضـت فـبـلـغـنـ

بني مـلـقـطـ عنـي إـذا قـيـلـ منـ عـنـي⁽¹⁾
فـما خـلـتـكـمـ يـا قـوـمـ كـنـتـمـ أـدـلـةـ
وـمـا خـلـتـكـمـ كـنـتـمـ لـمـخـتـلـسـ جـنـىـ
لـقـدـ كـنـتـمـ بـالـسـهـلـ وـالـحـزـنـ حـيـةـ
إـذا لـدـغـتـ لـمـ تـشـفـ لـدـغـتـهاـ الرـقـىـ⁽²⁾

(1) بني ملقط: حيآن من طيء. عن: أراد وقدص.

(2) الحزن: ماغلظ من الأرض. الرقى: الواحدة رقية: هي أن يستعان بقوى تفوق القوى الطبيعية للحصول على أمر، وهو يشير بذلك إلى منعة بني ملقط ومكانـتهمـ بـيـنـ الـقـبـائـلـ.

فَإِنْ تَغْضِبُوا أَوْ تُدْرِكُوا لَيْ بِذَمَّةٍ
 لِعَمَرُكُمْ لِمُثْلٍ سَعِيْكُمْ كَفِيٌ^(١)
 لَقَدْ نَالَ زَيْدُ الْخَيْلِ مَا لَأَخِيكُمْ
 وَأَضَبَّحَ زَيْدُ بَعْدَ فَقْرٍ قَذْ افْتَنَى
 وَإِنَّ الْكُمَيْتَ عِنْدَ زَيْدٍ ذَمَّامَةٌ
 وَمَا بِالْكُمَيْتِ مِنْ خَفَاءٍ لَمَنْ رَأَى^(٢)
 وَخَرَجُوا بِالْهَجَاءِ إِلَى التَّكْسِبِ كَمَا خَرَجُوا إِلَيْهِ بِالْمَدْحِ،
 فَكَانَ الشَّاعِرُ مِنْهُمْ يُدْعَى إِلَى قَبْلَةِ غَرْبِيَّةِ عَنْهُ، فَتَضَيِّفُهُ وَتَكْرَمُهُ
 لِيَهْجُو أَعْدَاءَهَا، عَلَى أَنَّ الَّذِينَ تَكْسِبُوا بِالْمَدْحِ أَكْثَرُ مِنَ
 الَّذِينَ تَكْسِبُوا بِالْهَجَاءِ، وَأَشَدُ الْهَجَاءِ عِنْهُمْ مَا كَانَ قَائِمًا
 عَلَى التَّفْضِيلِ، خَصْرُوصًا بَيْنَ الْأَقْرَبَاءِ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ كُلُّ
 مِنْهُمْ يَطْعَمُ فِي السِّيَادَةِ.

إِنَّ الشَّاعِرَ الْجَاهِلِيَّ كَانَ يَتَوَخَّى، فِي الْفَالِبِ، إِسْقاطَ
 الْمَهْجُوِّ مِنْ مَتْرَلَتِهِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، بَأْنَ يَنْتَزِعُ عَنْهُ الْفَضَائِلَ الَّتِي
 يُحِبُّ الْبَدْوِيُّ أَنْ يَنْعَتْ بِهَا لِيَكُونَ أَهْلًا لِلسِّيَادَةِ فِي قَوْمِهِ،
 فَيُرْمِيهِ بِالْجَهْلِ وَالْحَمْقِ وَالْجُبْنِ وَالْبَخْلِ وَالْغَدْرِ، وَقَدْ يَغْمُزُ مِنْ
 نَسْبَهِ لِيَخْرُجَهُ مِنْ قَوْمِهِ، أَوْ يَفْضُلُ أَقْرَبَاءَهُ عَلَيْهِ لِيَجْعَلُ لَهُمْ
 السِّيَادَةَ مِنْ دُونِهِ. وَمُثْلُ هَذَا الْهَجَاءِ لَهُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي

(١) أَوْ تُدْرِكُوا: أَيْ إِلَى أَنْ تَدْرِكُوا.

(٢) الذَّمَّامَةُ: الْحَقُّ وَالْحَرْمَةُ.

نفوسهم، يستعظمون أمره ويخشون أصحابه، هذا فضلاً عن الهجاء الذي يهتك حرمات النساء وربات الخدور ويُصب الشتائم والقبائح، فإنهم كانوا يذمون الناطقين به ويمقتوthem، قال خلف الأحمر: «أشدّ الهجاء أعفه وأصدقه». ويستحسن منه ما أخرجه الشاعر مخرج التهكم والتوصير الهزلي، فإنه يبلغ الشاعر بذلك مأربه من المرء الذي يهجوه ويضحك منه السامع لسخريته وعبته وظرفه، وهذا ما نسميه الهجاء اللاذع.

وقد يأتي الهجاء عن دافع شخصي لا بعامل قبلي أو تكسيبي، ولربما نالت الشاعر أذية من شخص ما، فيندفع إلى الانتقام منه بشعره. وأهاجي الجاهلين كمدانحهم صادقة التعبير عن ذهنية البدو وعاداتهم وتقاليدهم، وما تواضعوا عليه من الصفات المذمومة والمحمودة، فقد كانت القبيلة تعير الأخرى بأن شعراءها يرحلون بمدحائهم إلى الغرباء، وقلما خلت قبيلة من شاعر يرحل بشعره. وكانوا يعبرون الفارس إذا فرُّ عن عشيرته في الحرب، مع أنهم لا يستنكفون من التمدد بالفرار، إذا كان فيه منجاة للفارس من الهلاك. ويقبحون الغدر ويهجونه، قبل إنهم كانوا إذا غدر غادر فالعنوه! غير أنهم كانوا يستحلونه عند طلب الثأر لما يلحقهم من المذمة والمذلة في تركه. كما قد تسمع بعض الشعراء يرمي مهجوحاً

بالضعف، إذا عجز عن الظلم والغدر. والظلم عندهم مكروره إذا أصاب الأقرباء، محمود إذا أصاب الغرباء. وكان العرب كما رأينا يحتقرن الصناعات وينذرون أصحابها، وينسبونهم إلى الخمول والضعف، لأنه كان في اعتقادهم ينبغي للفارس أن يكسب رزقه بسيفه وغزاوه. ولم تكن التجارة أحسن حظاً عندهم، وهي لم تعرف في غير المدن كمكة ويثرب واليمن، فهجيت قريش بها لأن معظم أهلها كانوا تجاراً. وكانوا إذا اشتهرت قبيلة بأكلة غيرت بها، ولو كانت من طيب الطعام، ومن عادة العرب أن يتهاجوا بكل شيء أفرطوا في استعماله، فقد هجيت بنو تغلب بكثرة روايتها معلقة عمرو بن كلثوم مثلاً، وقريش هجيت بالسخينة^(١). ولربما غيرت القبيلة بعيوب رجالها. قال الجاحظ في كتابه البخلاء: «والعرب إذا وجدت رجلاً من القبيلة قد أتى قبيحاً، ألزمت بذلك القبيلة كلها، كما قد تُمدح القبيلة بفعل جميل، وإن لم يكن ذلك إلا بفعل رجل واحد منها».

وكان الكرم من أسباب السيادة، فأكثروا من هجو الأشراف بالبخل والكرازة لإسقاط منزلتهم بين الناس، ويتبع ذلك ذكر النار وخمودها لقلة طبائعهم، أو لخشيتهم أن يعشوا إلى ضئولها الضيفان، وكذلك ذكر الكلب ونباحه في وجه الزائر

(١) السخينة: طعام رقيق يتحذى من الدقيق، لقيت به قريش.

لأنه لم يألف الغرباء عند صاحبه، وسكته عن النباح ليلاً لثلاً
يهدي الطارق ليلاً أو الحائر، فاتهموا البخلاء بتخنيق
الكلاب.

وكان للهجاء تأثير في النفوس، فقد كانت السادات
والقبائل تتضور منه، ولا تصر علىه، لسيطرة الشعر وكثرة
رواته. وأفضل الهجاء ما جاء في الدفاع عن سياسة القبيلة
والرد على خصومها، أو ما جاء في ذم الأخلاق الرديئة وخلا
من الفحش وتعزيق الأعراض.

ولقد قلل الهجاء في شعر كعب إلا ما كان من هجاء زوجته
والشيب، رغم ما قيل عنه إنه كان رجلاً شريراً شرساً في
جهليته - طبعاً - لا يصيبه خيراً من وجده توجه إليه، ولا ينمّي
له مال، فعتبت عليه امرأته، وأذنته بالظعن والفرق، فقال:

إِنِّي عَزِيزٌ قَدْ أَذْتَنِي أُخِيرًا
لَمْ تُرْجِعْ وَلَمْ تُؤْمِرْ أَمِيرًا^(١)
أَجْهَارًا جَاهِرْتُ لَا غَنْبَرَ فِيهِ
أَمْ أَرَادْتُ خِيَانَةً وَفَجُورًا^(٢)

(١) العرس: الزوجة، الخليلة. أذتنى: أعلمته. لم ترجع: لم تعطف.
وقوله: لم تؤمر أميراً، أي لم تشاور في ذلك.

(٢) جاهرت: أعلنت، وجهت مجاهرة وجهاراً بالشيء: كاشفة به ولم يخفه. لا
غبن في. أي لا يعييك.

ما صَلَحُ الزَّوْجِينَ عَاشَا جَمِيعاً
 بَغْدَ أَنْ يَضْرِمَ الْكَبِيرُ الْكَبِيرَا^(١)
 فَاصْبَرِي مُثْلَ مَا صَبَرْتُ فَإِنِّي
 لَا أَخَالُ الْكَرِيمَ إِلَّا صَبُوراً..^(٢)

وهو كما ترى أقرب إلى اللوم والعتاب منه إلى الهجاء.
 وهذه أبيات يلوم فيها امرأته لأنها لامته حين نزل به
 أضياف، فنحر لهم بكرأً كان لها. فقال:

أَلَا بَكَرْتُ عِرْسِيْ تُؤَمِّنُ لِحِيْ
 وَأَقْرِبُ بِأَحْلَامِ النِّسَاءِ مِنَ الرُّدَى^(٣)
 وقوله هنا: وأقرب بأحلام النساء من الردى: إنما أراد أن
 حلمهن يصبر إلى فساد؛ وفي المثل: «لب المرأة إلى حمق»
 وهو يضرب عذراً للمرأة عند الغيرة.

أَفِي جَنْبِ بَكْرٍ قَطَعْتِي قَلَامَةَ
 لِعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ مَلَامِهَا ثَنِي^(٤)

(١) الزوجان: الرجل والمرأة. يضرم: يهجر.

(٢) إنما أراد: أصبر على كبرى كما صبرت على كبرك، لأن الصبر من صفات الكرام.

(٣) عرسي: أمرأتي. تؤامن: تختار وتساير. لحي: لام.

(٤) البكر: الفتى من الإبل. ثني مرأة تلو مرأة، يشير إلى لوم امرأته له.

الا لا تلومي ويبَ غيرك عارياً
رأى ثوبه يوماً من الدُّهْرِ فاكتسى ..^(١)
وقوله أيضاً:

الا بَكَرْتُ عَرْسِي تَلُومُ وَتَغْذِلُ
وَغَيْرُ الَّذِي قَالَتْ أَعْفُ وَأَجْمَلُ
وَلَمَا رَأَتْ رَاسِي تَبَدَّلَ لَوْنَهُ
بِيَاضاً عَنِ اللَّوْنِ الَّذِي كَانَ أَوْلَى
أَرَنْتُ مِنَ الشَّيْبِ الْعَجِيبِ الَّذِي رَأَتْ
وَهَلْ أَنْتَ مِنِي وَيَبَّ غَيْرِكَ أَمْثَلُ^(٢)
كَلَانَا عَلَتْهُ كِبْرَةً فَكَائِنًا
رَمْثَهُ سِهَامٌ فِي الْمُفَارِقِ نُصْلُ ..^(٣)
فالهجاء عند كعب قليل جداً فلا تكاد تلمع في شعره
هجاء عن دافع شخصي أو بعامل قبلي أو تكسبي وإنما هو
هجاء اشبه بالعتب واللوم منه بشيء آخر، فلا قساوة ولا
فحش تلحظ في هجائه.

(١) يقول: لا تلومي في أن نحررت بكرأ أو كسوت عارياً فاكتسى. ولعله أراد
أنه كان عارياً من ثوب الكرم لأنه لم يجد ما يحود به على اضيافه، فلما رأى
ثوب الكرم، وهو نحر بكرها، لبسه.

(٢) أرنت: أظهرت الخوف والجزع. يقول لست بأمثل مني فقد أصابك ما
أصابني من الشيب وال الكبر. ويب: دعاء يغيد اللذ و الشتم.

(٣) فقد شبه الشيب بسهام لا نصال لها وقد ألبسه خاراً أبيض وذهب بسوار
شعره.

الرثاء في شعره: يشغل الرثاء جانبًاً عظيمًا من الشعر القبلي لأنّه، في أكثره، مصروف إلى سادات العشيرة وفرسانها الذين لهم مأثر محمودة، فليس موتهم موت فرد واحد، وإنما هو بنيان قوم تهدم، وكلما دنت القرابة بين الشاعر والميت ازداد الرثاء حسرة وتراجعاً، وأروعه ما نُدِبَ به الأبطال المجندلون في ساحات القتال، فإن الشعراً، في رثائهم والبكاء عليهم وفي تعداد مناقبهم، يثيرون الأحقاد ويُشحدون العزائم والهمم، ويُهجرون القبيلة للحرب والأخذ بالثار، وفيه تتدفق العاطفة لوعةً وألمًا، كما يشتند الغلو في ذكر أوصاف الميت وتعظيم المصاب به، فليس إلا الشعور يفيض دمعاً وأسىًّا عليه، وفخرًا ومباهة به، ومدحًا وتأييضاً له، فتفاعل مشاعر مختلفة من خسارة وحزن، واعجاب واعتزاز، وضيق ونفقة. والتجمُّع والتهويل شائع عندهم في رثاء الملوك والرؤساء لا يقتصر فقط على الأهل والأقارب بل يتعدى ذلك إلى كل عزيز في القبيلة أو غيرها. وهم يصفون الميت بجميع الفضائل التي يفخرون ويمدحون بها، غير أنّهم يجعلون في كلامهم قرائن ودلائل تفيد أن المقصود به رثاء لا مدح، بما يتخلله من عبارات فيها ذكر المصاب والدفن والقبر، وفيه التلهف والتجمُّع ونداء الميت. وكثيراً ما ينعون تلك الفضائل مع الميت؛ فكأنها ذهبت بذهابه، فليس

بعده من يجحب إلى النَّدِي، ولا من يحمي النساء والأموال
ويغيث الملهوف، فقد دفت المكارم بدفعه، وغُيّبت الأخلاق
الفاصلة الحميدة الطيبة في ثراه.

قال ابن رشيق في العمدة: «ومن عادة القدماء أن يضربوا
الامثال، في المرائي، بالملوك الأعزَّة، والامم السالفة،
والوعول الممتنعة في قلل الجبال، والأسود الخادرة في
الغياض، وبحرر الوحش المتصرف بين القفار، والنمور
والعقبان والحيَّات لباسها وطول أعمارها، وذلك في أشعارهم كثير
موجود، لا يكاد يخلو منه شعر.» وإنما اتخذوا هذا الاسلوب
ليستخلصوا حكمَة ساذجة، وهي أن هؤلاء الملوك والابطال
والجبابرة من الشعوب الخالية لم يعف الموت عنهم. ومثلهم
الحيوانات الضاربة، أو الممتنعة في الجو والأكام والأودية،
أو الطويلة الأعمار. ولو نجا حيٌّ من الموت لكان أولئك
الناس وتلك الحيوانات أولى من غيرهم بالنجاة. فيجدون
عزاء لأنفسهم بضرب هذه الأمثال التي تجعلهم أحياناً لا
يندفعون مع العاطفة الجازعة المتفجعة، بل يستسلمون إلى
القدر الذي يؤمنون بسلطانه ويختضعون لأحكامه القاسية
راضين على كره بما قُسم لهم.

ولكن من الملاحظ أن الرثاء في شعر كعب يكاد أن يكون

نادراً، ولعل القصيدة الوحيدة التي قالها في هذه المناسبة هي في مقتل جوبي بن عائذ من مزينة، ورواية ذلك أن جوبياً هذا مر على الأوس والخزرج وهم يقتلون - وكانت الأوس من حلفاء مزينة - فأصيب. فمر به ثابت أبو الشاعر حسان بن ثابت، فقال: يا أخا مزينة، ما طرحك هذا المطرح؟ فقال جوبي وهو يجود بنفسه: أعطي الله عهداً ليقتلن بي منكم خمسون ليس فيهم أعزور ولا أعرج.

وسائلت كلمة جوبي هذه حتى انت «عن» وهو موضع قرب المدينة، وهي بلاد مزينة، فثاروا يريدون الخزرج طالبين بدم جوبي، والتلقى الجمعان بشرب فاقتتلوا فقتل من الخزرج عدّة، وأسر ثابت بن المنذر، فأقسم مقرن وهو رئيس بني مزينة أن لا يأخذ فداء إلا تيساً أسود لا قرن له. ولما رأوا أنه لا بد من ذلك جاء بتيس أسود أجم، فذبحه مقرن بسوق عكاظ وأطعم الناس لحمه. وقال ابن الكلبي: إنما كان ذلك بيعاث، والمسور هو حسان نفسه وليس ثابت أبوه. وزاد بقوله: ولما حلف مقرن أنه لا يقبل الفداء إلا تيساً أسود أجم، أتوا حسان فقالوا: ما ترى؟ وغضبوا. فقال لهم: ما لكم تغضبون! ادفعوا إلى القوم أخاهم، أي التيس الأسود الأجم، وخذلوا منهم أخاكم، أي حسان بن ثابت. حيث يقول:

لَقْدْ وَلَى الْيَتَمْ جُزُئِيٌّ
 مَعَاشِرَ غَيْرِ مَطْلُوبٍ أَخْوَهَا^(١)
 فَإِنْ تَهْلِكْ جُزُئِيٌّ فَكُلُّ نَفْسٍ
 سَيْجِلُّهَا كَذَلِكَ جَالِبُوهَا
 وَإِنْ تَهْلِكْ جُزُئِيٌّ فَإِنْ حَرْبًا
 كَظْنَكَ كَانَ بَعْدَكَ مُوقِدُوهَا^(٢)
 وَمَا سَاءَتْ ظُلُثُونَكَ يَوْمَ تُولِي
 بِأَرْوَاحٍ وَفَقِي لَكَ مُشَرِّعُوهَا^(٣)
 كَائِنَكَ كُنْتَ تَعْلَمُ يَوْمَ بُرْزَتْ
 ثَيَابُكَ مَا سَيْلَقَى سَالِبُوهَا^(٤)
 بِنَذِيرَكَ وَالنَّذُورُ لَهَا وَفَاءٌ
 إِذَا بَلَغَ الْخَرَابَةَ بِالْيَغُومَا^(٥)

(١) اليتيم: الحلفه. يقول: لقد ولى جزء يمينه قوماً لا تذهب دعاؤهم باطلأ.

(٢) قوله: كظنك، أي كان موقودها بعده كظنك. فجعلها خبر كان.

(٣) تولي: تقسم، يقول: ما ساء ظنك ولا خاب يوم أقسمت بأرماح وفقي لك مسدودها فصلق ظنك بهم.

(٤) بُرْزَتْ: سُلْطَنَتْ.

(٥) الخرايبة: الموان والذل. يقول: لقد استرسل أهل الخزي بغיהם فوجب الوفاء لندرك.

... ولو بلغَ القتيلَ فعالٌ حيًّا
لَسْرُكَ من سِيرِكَ مُنْتَضِوْهَا^(١)

الغزل في شعره: يقوم أكثر الغزل الجاهلي على الوصف والتشبيب، وأقله ما جاء قصصياً يحمل ذكريات المغامرات الغرامية، بعضه عفيف شريف، وبعضه لا يخلو من فحش ورذيلة، وخاصة شعر المترفين منهم. كما تسيطر عليه المادة من جميع نواحيه، ليس فيه من نفحات الروح إلا شيء يسيرأ لا يكاد يحس. وليس الغزل عندهم فناً مستقلاً، وإنما هو غرض من الأغراض المتعددة التي تشتمل عليها قصيدهم، ولكن له حق الصدارة يُستهل به ثم ينتهي منه إلى غيره.

ويبدأون غزلهم في الغالب بذكر الطلوں الدارسة التي خلت إلا من الدمن والرياح التي تلعب بها، حيث عفت آثارها الامطار، تسرح بها الأرام مطمئنة لخلوها من سكانها. ثم يذكرون بعد ذلك الفراق وكيف تم انتقال الظعائن، فتشجى نفوسهم، وتفيض عيونهم بالبكاء، ويستعيدون صورة الحبيب النائي آخذين بوصفه وتمثيله، ذاكرين اسمه الحقيقي، أو كائين عنه بغيره حرمة واستحياء.

(١) يقول: لو بلغك أثيا القتيل أفعال قومك من بعديك، لسرك ما فعلوه ولأعجبت بصنعيهم، والغاية أنهم وفوا بما أقسم به، وما خيبوا له ظناً.

والجاهلي شديد الشغف بذكر محسن المرأة يصف
 أعضاءها وملامحها ومزاياها ويحيطها بأحسن ما عنده من
 التشابيه، فهي كالبيضة ودرة الغواص في صياتها وصفاتها.
 وشعرها الفاحم كعناقيد النخل، طويل إذا أرسلته ينضر.
 ووجهها أبيض ضارب إلى الصفرة، يضيء كالشمس أو
 كالبدر أو كالنار، أو كمنارة الراهب. يؤثرون العين السوداء
 والكحلاء والحوراء، التي قد تشبه عين الغزال والمهاة.
 ويستحسنون بياض الاسنان، ويشبهونها بالبرد، ويمدحون
 الثغر ببرودة الريق، وحلوة الطعم، وطيب النكهة لا تفسده
 نومة الضحى. ويشبهونه بالخمر وبالمسك وبالروضة الأنف.
 ويعجبهم الجيد الأتلع ويرون له شبهًا في جيد الرئم،
 والخصر الأهيف، والكتفع الهضم، والردد الثقيل، والقامة
 اللدنة. ويشبهون الخصر بالجديل والردد بالكتيب، والقامة
 بالغضن أو بالرمع. ويصفون الانامل بالرقفة واللطفافة حتى
 لا تكاد تنعقد، ويشبهونها بالاساريع^(١).

ولا تحمد الساق عندهم إلا إذا كانت عبلة^(٢) صامدة
 الججل رأس المخلخل. وخير النساء الحرة المنعمه، الكسول

(١) الاساريع: دود ناصع البياض أحد طرفه يضرب إلى الحمرة طري
اللمس ناعمه.

(٢) عبلة: فضخمة كثيرة الشحم واللحم.

التي تنام الضحى، ولا تقوم للعمل، القصيرة الخطى،
 البطيئة إذا مشت انبرت لكترة ما عليها من اللحم. ومن
 صفاتها أن تكون حلوة الحديث عذبة الكلام يتسلط منها
 تساقط الحلى، حساناً عفه، وفيه لزوجها كاتمة اسراره، لا
 تتدخل فيما ليس يعنيها من أسرار الجيران. ولكن غزلهم في
 كثرته يدل على سوء ظنهم بالمرأة، وشدة ما يعانون من
 غدرها وتبدلها الأصحاب ونفورها من الزوج إذا كبر وشاب.
 وطالما حاول الشاعر منهم أن يرد تهمة الكبير بذكر همته
 ومقدراته على اللهو ولفت انتباه النساء، فهذا كعب يصف
 حبيبته سعاد بقوله:

فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا
 كَمَا تَلُونُ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولُ
 وَلَا تَمْسِكُ بِالْعَهْدِ الَّذِي زَعَمْتُ
 إِلَّا كَمَا تَمْسِكُ الْمَاءُ الْفَرَابِيلُ
 أَوْ قَوْلَهُ مَتَغْزِلًا بِحَبِيبِهِ رَمْلَةٌ

نَشَفَى بِهَا وَهِيَ دَاءٌ لَوْ تُصَاقِبُنَا
 كَمَا اشْتَفَى بِعِيَادُ الْخَمْرِ مَخْمُورٌ^(۱)

(۱) تصاقبنا: ندانينا. اشتفى: بريء من دانه. عياد الخمر: العودة إليها.

ما روضةٌ من رياض الحَزْنِ باكِرِها
 بالنُّبْتِ مُختَلِفُ الالوانِ ممطُورٌ^(١)
 يوماً بِأطْيَبِ منها نُشَرَ رائحةٌ
 بعد المنام إذا حُبَّ المعاطير^(٢)
 ما أَنْسَ لا انسها والدمعُ مُنْسَرِبٌ
 كَأَنَّهُ لُؤلُؤٌ في الْخَدْ مَحْدُورٌ^(٣)

ومن رقيق قوله:

يا ليت شعري وليت الطير تُخبرني
 أمثل عشقِي يُلاقي كُلُّ من عَيْقَا
 إذا سمعت بِذِكْرِ الحُبِّ ذَكَرَني
 هنَدَآ فَقَدْ عَلِقَ الأَحْشَاءُ مَا عَلِقا
 كم دُونَهَا مِنْ عَدُوٍّ ذِي مُكَاشَحَةٍ
 بِادي الشَّوارَةِ يَدِي وَجْهِهِ خَنَقاً^(٤)

(١) الحزن: طريق بين المدينة وخيبر: قال أبو عمرو: الحزن ما غلظ من الأرض. باكرها مطمور: أنصب عليها من الصباح الباكر.

(٢) المعاطير، الواحد معطار: الذي من عادته أن يتمهد نفسه بالطيب.

(٣) محدور: منحدر.

(٤) المكافحة العداوة المضمرة والمقاطعة. الشوارة: الزينة، وفي الأصل «الشارقة».

على أن الشاعر الجاهلي في مادته كان لا يُعْنِي كثيراً بوصف أخلاق المرأة، وعرض نفسيتها، وتحليل عواطفها، كما لا يعني بشكل عام بتصوير لواعج نفسه، وتلمس خفاياها، واستخراج الأهواء المتدافعه فيها. فقد كان يحسن كل الإحساس بالألم والخيالية، واللذة والأمل، فتعبر عن هذه المشاعر المرهفة دموعه وابتساماته، وتلهفه وابتهاجه، أكثر مما تعبر عنها صوره وألوانه. فهو يحسن تصوير الأشياء الظاهرة العرئية التي تبعثُ فيه الشعور والاشتياق، ولا يحسن بانتالي تصوير ما في النفس من خوالج وانفعالات. ولربما ظهرت شخصية المرأة في شعرهم عامة مشتركة لتواظتهم على أوصاف رتيبة لا يجاوزونها، ولا يحيدون عنها، فقلما تجد فرقاً بين واحدة وأخرى من عرائس الإلهام.

هذه أهم الموضوعات التي وردت عند الشعراء الجahلين ومنهم شاعرنا كعب بن زهير رأينا أن نتكلم عنهم جميعاً بشكل عام وعن كعب بشكل خاص توخيأ للإفادة والمنفعة، لنعطي فكرة واضحة كيف نظر هؤلاء الشعراء عامة إلى هذه الموضوعات وإلى أي حد شاركهم فيها شاعرنا كعب.

بناء القصيدة

١
كعب كغيره من الشعراء الجاهليين كان أسير النمطية والاتباعية اللتين أوقعتا الشعر الجاهلي في التكرار وفي استهلاك الأحداث والصور، ونعزّو ذلك إلى تمسّك العرب بالأعراف والتقاليد، وإلى عقليةهم الضيقـة المحدودة وما سادها من مفاهيم جعلت المساس بتلك الأعراف والتقاليد خروجاً على الطاعة وشذوذـاً على القاعدة والسنن، وقد كانت العصبية والقبلية متحكمـتين في الناس إلى الحـد الذي جعل الخروج عليهما تمرداً على التماـسـك والوحدة التي كانت ضرورية في مجتمع قبلي تسوده شريـعة القوة وما يتبعـها من قـتل ونهـب وسلـب، ولذلك فقد ترسـخـ في أذهـانـ الناس مفهـومـ الولـاء لـكلـ الأعرافـ والتـقالـيدـ، وتجاوزـ ذلكـ إلىـ الأدبـ ومعـايـرهـ، فـكانـ الخـروـجـ عـلـىـ آنـماـطـهـ ضـعـفاـ فيـ شـاعـرـيـةـ الشـاعـرـ، وـقـصـورـاـ فيـ خـيـالـهـ وـتـعبـيرـهـ، كـماـ كانـ مـعيـارـ الفـحـولةـ فيـ الـمحـافظـةـ عـلـىـ تـلـكـ الـأـنـماـطـ وـالـسـيـرـ عـلـىـ هـدـيـهـ وـمـنـوـالـهـ الـذـيـ يـرـفعـ وـيـضـعـ بـقـدـرـ الإـجـادـةـ فـيـ الـالـتـزـامـ بـذـلـكـ النـهـجـ، وـلـيـسـ بـقـدـرـ الخـروـجـ عـلـيـهـ، وـلـذـاـ كـانـ الشـعـرـ الجـاهـلـيـ مـتـشـابـهـاـ

في موضوعاته وأغراضه، وكان على الشعراء - ومنهم كعب ابن زهير - وجوب الالتزام بذلك المنهاج الذي جعلهم ينخرطون فيه موالين ومدافعين، حتى أصبحوا جميعهم إلا ما ندر من السالكين والمؤسسين والدائرين في فلكه، ومن ثم كان الخروج تمرداً يستوجب الخلع والافراد، بل السخرية والاستهزاء.

وإذا عدنا إلى شعر كعب وتفحصنا أغراضه الشعرية وأساليبه البنائية، فإننا نجد ذلك الالتزام الذي ذكرناه واضحًا كلَّ الوضوح في سائر قصائده، ما عدا مقطوعات صغيرة لا تتجاوز في أطوالها أصابع اليد الواحدة أفردها الشاعر ليث شكوى من دهره أو حكمه أراد لها أن تشيع وتذهب مثلاً بين الناس، فقد حافظ كعب في كلَّ قصائده على السنن التقليدي الذي كان يفرض على الشاعر استهلاً معييناً يتذكر فيه منازل الأحباب ومظاعنهم، ويحمله أشجان نفسه وحنينه إلى أوقات الوصول واللقاء. ومن ثم يعمد إلى وصف الطبيعة مبتدئاً بوصف الناقة أو الحصان، وهو ما في نظره خير وسيلة توصله إلى غايته، وتحقق له رغباته وأمانيه، ويخرج بعد ذلك على وصف البيئة الصحراوية وحيواناتها ذاكراً مكابدته في مهامها، ويتنهى أخيراً إلى ذكر موضوعه الخاص الذي لا يفرد له في أبياته إلا بسيراً من القول، ولمحاً من النظم، يفيدان الغرض

ويدلّان عليه، ولكنهما لا يلمان به إلا لماماً سطحياً يمكن القارئ أو السامع من استحضاره أمام العين أو الذاكرة، دون أن يعيشه الشاعر ذاته، ويحمله ما يجب أن يحمل من معانٍ وأبعاد.

والحق أن كعباً قد دقق في التزام ذوق أسلافه ومعاصريه من الشعراء، فكان رساماً لمشاهد اعتاد الشعراء على رسمها وأحبت هو أن يمسك بريشه ويدلي بدلوه ويتفحص بعينيه ألوانها ومناظرها ومقوماتها، ويتقرى بيديه خطوطها وأطراها ليرسم لنا صوراً طريفة تحمل أحياناً ذوقه الخاص، إلا أنها في أكثرها تقع في رتابة التفاصيل والأحداث والتحليل على أساليب الصياغة الشعرية التي تزيد خطأً هنا وتعبيراً هناك، وفذلك تبيّن بما لا يدعو إلى الشك كم استغرق «الجمل والنافقة من الشعر وخیال الشاعر، وكم استغرق وصف الأرض سهلها وحزنها» من وقته وتلاعبه بالألفاظ والعبارات، وظل ذلك كله في إطار الوصف البقريري الذي يرسم ما تقع عليه العين، وينقله نقاً أميناً في أكثر جزئياته وتفاصيله، معتمداً على الملاحظة الذاتية الحسية التي «أفرغت في قوالب تحدّرت إلى الشعراء من الأجيال القديمة، ومن هنا لم يفسح هذا الفن مجالاً واسعاً أمام الشعراء لإظهار شخصياتهم إلا في القليل النادر، حيث تكون المفارقة صريحة جداً».

ولنستمع إلى كعب في نموذج من قصائده لتحقق من ذلك
الذي أسميه التزاماً في شعره، ولنفف على الأطر البنائية
للقصيدة عنده، يقول كعب:

أَمْ أَمْ شَدَادِ رُسُومَ الْمَنَازِلِ
تَوَهَّمْتَهَا مِنْ بَعْدِ سَافِ وَوَابِلٍ^(١)
وَيَعْدُ لِيَالٍ قَدْ خَلُونَ وَأَشَهَرٍ
عَلَى إِثْرِ حَوْلٍ قَدْ تَجَرَّمَ كَامِلٍ^(٢)
أَرَى أَمْ شَدَادِ بِهَا شَبَهَ ظَبَيَّةَ
تَطِيفُ بِمَكْحُولِ الْمَدَامِعِ خَادِلٍ^(٣)
أَغْنُ غَضِيبَ الْطَرْفِ رَخْصَ ظَلَوْفَهِ
تَرُودُ بِمَعْتَمٍ مِنْ الرَّمْلِ هَائِلٍ^(٤)
وَتَرَنُوا بِعَيْنِي نِعْجَةَ أَمْ فَرَقَدَ
تَظْلُلُ بِسَوَادِي رَوْضَةَ وَخَمَائِلٍ^(٥)

(١) الرسوم: الآثار. والساف: الريع، والوابل المطر.

(٢) الحول: العام. وتجرم: تم وانقضى.

(٣) الخاذل: الذي يتخلف عن أمره.

(٤) الأغن: صفة للغزال الذي في صونه غنه، وغضيب الطرف: فائزه، والرخص: اللين، وترود: ترعى، والمعتم: الذي ليس العمامة، أي أن الرمل ليس عمامة من النبات.

(٥) ترنو: تنظر، النعجة: البقرة الوحشية، والفرقاد: ولد البقرة.

وتخطرو على بردتيسن غداهمسا
 اهاضيب رجاف العشيات هاطل^(١)
 وتفتر عن غر الشنايا كأنها
 افاح تروي من عروق غلاغل^(٢)
 ليالي نحتل المراض وعيثنا
 غريز ولا نرعى إلى عذل عاذل^(٣)
 فأصبحت قد انكرت منها شمائلا
 فما شئت من بخل ومن منع نائل^(٤)
 وما ذاك عن شيء أكون اجترمه
 سوى أن شيئا في المفارق شامل^(٥)
 فإن تصرمي وتب غيرك تصرمي
 وأوذنت إيزان الخليط المزايل^(٦)

(١) الأهاضيب: جمع أهضبة وهي الدفعة من المطر، والرجاف: المصطرب المصوت كالرعد وغيره.

(٢) تفتر: تبتسم. وغر الشنايا: يبضم الاسنان في مقدم الفم. والغلاغل: من تغلغل الماء في الشجر: غلتها.

(٣) المراض: موضع على طريق الحجاز من ناحية الكوفة.

(٤) الشائيل: كرم الأخلاق، والنائل: العطاء.

(٥) اجترمه: اقرفته.

(٦) تصرمي: تهجريني وتقطعني حبل مودتي، وتب: دعاء عليها بمعنى افلالك والمزايل: المفارق.

إذا ما خليلٌ لم يصلك فلا تقم
 بتلعته واعمد لأخر واصل^(١)
 ومستهلك يهدي الفضول كأنه
 حصير صناعٍ بين أيدي الرؤامل^(٢)
 متى ما تشاً تسمع إذا ما هبطته
 تراطن سربٌ مغرب الشمس نازل^(٣)
 روايا فراح بالفلة توائمٍ
 تحطم عنها البيض حمر الحوابل^(٤)
 توائم أشباء بغير علامٍةٍ
 وضعن بمجهولٍ من الأرض خاملٍ
 وخرق يخاف الركب أن يدلعوا به
 يغضون من أهواله بالأنامل^(٥)

(١) التلعة: مسليل مرتفع إلى بطئ الوادي.

(٢) المستهلك: الطريق الوعر لكنه واضح المعالم. والرؤامل: النساء الخاذفات في صنع المُصر.

(٣) التراطن: اللقط والصياغ. والسرّب: القطيع من القطا وغيره.

(٤) روايا فراح: أي التي تستفي الماء فراخها. وتوائم: جمع توأم، أي الثنان. وتحطم: تكسر.

(٥) الخرق: التسخ من الأرض. والادلاج: سير الليل كله.

مخوِفٌ بِهِ الْجَنَانُ تَعْوِي ذَثَابَهُ
 قَطَعَتْ بِفَتَلَاءِ الدَّرَاعِينَ بَاذَالَ^(١)
 صَمُوتُ السُّرَى خَرْسَاءَ فِيهَا تَلْفَتَ
 لَبَأَةَ حَقًّا أَوْ لِتَشْبِيهِ بَاطِلَ^(٢)
 تَنْظُلُ نَسْعَ الرَّحْلَ بَعْدَ كَلَالِهَا
 يَهْنَ أَطْبِطَ بَيْنَ جُوزٍ وَكَامِلَ^(٣)
 عَذَافِرَةَ تَخْتَالَ بِالرَّحْلِ حَرَّةَ
 تَبَارِيَ قَلَاصَأَ كَالنَّعَامِ الْجَوَافِلَ^(٤)
 بِوَقْعِ دَرَاكٍ غَيْرَ مَا مَتَكَلِّفٌ
 إِذَا هَبَطَتْ وَغَثَأَ لَا مَتَخَازِلَ^(٥)
 كَأَنَّ جَرِيرِي يَتَحْيِي فِيهِ مَسْحَلٌ
 مِنَ الْقَمَرِ بَيْنَ الْأَنْعَمِينَ فَعَاقِلَ^(٦)

(١) الجنان: الجن، والفتلاء: الناقة. والباذل: الذي استكمل السنة الثامنة وقطر نابه.

(٢) السُّرَى: سير الليل، واللباء: الصوت الخفي.

(٣) النسوع: جمع نسع وهو الحبل. والكلال: التعب. والأطبط: الصرير؛ وجوز الناقة: وسطها.

(٤) العذافرة: الناقة القوية الأئمة الظهر. والقلوص: الفتية من الإبل. والجوافل: الشوارد.

(٥) بوق دراك: أي بير على نسب واحد، والوعث: الأرض ذات الرمل والطين.

(٦) الجرير: الزمام من الجلد. ويتحي: يعتمد. والمسحل: العبر. والقمر: أبيض البطون.

يغرّد في الأرض الفلاة بعانية
 خماص البطون كالصعاد الذوابل^(١)
 ونازحة بالقفيظ عنها جحاشها
 وقد فلست أطياؤها بمكاحل^(٢)
 وهم بورد بالرَّسِيس فصده
 رجال قعود في التَّجْيِي بالمعابل^(٣)
 إذا وردت ماء بليل تعرّضت
 مخافة رامٍ أو مخافة حابل^(٤)

لقد بدأ كعب هذه القصيدة بالغزل حيث استغرق القسم
 الأكبر منها ثم انتهى منه إلى ركوب ناقه والسير بها في طرق
 الصحراء، وأصفاً لها بكل النعوت المألوفة، معرجاً على
 وصف مشاهداته ناقلاً تفاصيلها بأسلوب نلمع فيه الدقة
 والجزالة والمتنانة، ولكننا نلمع فيه أيضاً التفاصيل نفسها التي

(١) يغرّد: يصوّب. والعانية: الجماعة من حر الوحش، والخماص: المزال.

والصعاد: جمع صعدة وهي القناة. والذوابل: الذاوية.

(٢) النازحة: الأننان، والقفيظ: الحر. وفلست: جف ضرعها. والأطياؤ:
الأخلاف.

(٣) الورد: ورود الماء، والرَّسِيس: وادٍ فيه الماء، والمعابل: الحجارة بنيت
مكانن للتصيد.

(٤) تعرّضت: تلوقت في سيرها يمنة ويسرة، والرامي: الذي يرمي بالسهام،
والخابل: أي الذي ينصب الخيال أثراً للايقاع بها.

اعتدنا أن نسمعها من أبيه ومن غيره من الشعراء السابقين.

ويبدو كعبٌ في هذه الأبيات صانغاً ماهراً ورث صنعة تحدّرت إليه من أبيه، ومن أنماط صناعية معروفة، إلا أنه حاول أن يبني لنفسه بيتاً خاصاً به، أو عقداً اختار حباته بنفسه، ولكن الحجارة التي استعملها في بناء ذلك البيت، لم تكن لتختلف عن غيرها من حجارة الآخرين، والحبات لم تكن إلا حبات عقود أفردها، ومن ثم عاد ليشك منها عقداً آخر يحمل طابعه الخاص وترتيبه المتفاوت، واستطاع إلى حد ما أن يبني لنا بيتاً جميلاً أو عقداً رائعاً، إلا أنه لم يستطع أن يخرج في ذلك البناء والترتيب على تقاليد عصره، بحيث ظلّ البناء أو العقد عملاً له نظائره، وصنعة لها ما يحاكيها ويشابهها، فهو لم ينطلق إلى غايته من بواعث نفسية خاصة، أو مشاعر ذاتية ضاغطة، فرضت عليه أن يعبر عن حاجات اعتملت في النفس، ووجدت في الشعر مجالاً للافصاح عنها بأسلوب خاص يحمل كلّ توجعات الذّات وهموم الحياة، ولكن كعباً لم يفعل ذلك وآثر أن يسير في أبياته على طريق من تقدمه، فقد شعره بذلك رونق الجدية وشمولية الأبعاد، وظلّت تنقصه التجربة التي تهزُّ المشاعر، وتبعث الكلم دفأفاً مستلّاً من الأعمق، حاملاً معه كلّ عناصر الشعر الأصيل.

وإذا نحن حاولنا أن نتجاوز هذا الموضوع إلى غيره من

الم الموضوعات الأخرى في شعر كعب، فإننا سنلمح في ديوانه
شعرًا متشابهاً في كثيرٍ من قصائده، وهذا حقيقة نلمسها في
نزعه الدائم إلى وصف الصحراء والفacaة، وما في الصحراء
من طرقٍ وحيوانات وتفاصيل تتكرر هنا وهناك، يقلّبها الشاعر
في صياغات متعددة حضرت خياله في بيته لم يستطع التغلب
منها، فظلَّ يرسف في تقريرية قلماً تركت الخيال يتذكر
ويتفتق عن معانٍ جديدة، وصورٍ ذهنية بارعة، حتى في مدحه
للنبي عليه الصلاة والسلام، فإنَّ روح التقليد يبدو واضحاً
وحليناً، وكأنَّ الشاعر يمدح في شعره سيداً من سادات قومه
ورئيسيَاً من رؤسائهم، لا نبياً جاء بأكبر انقلابٍ دينيٍّ عرفته
البشرية، وأحدث تغيراتٍ أصلية في جوهر الحياة الإنسانية
قاطبة، وظلَّ تأثراً بالدعوة الإسلامية عرفيَاً، فصاراه أنَّ محمداً
نبيُّ الله وسيفٌ من سيفه المسلولة، العفو عنده مأمول،
والوعد لديه منجز، والتوبة في حضرته مقبولة، فهو كالأسد
قوَّةً وبطشاً وهيبةً، فلولا قوله:

مهلاً هداك الذي أعطاك نافذ
ة القرآن فيها مواعيظٍ وتفاصيل
وقوله:

إنَّ الرسول لسيفٍ يستضاهء به
مهنَّدٌ من سيف الله مسلول

وأبيات أخرى تصف همة وخوفه واستسلامه لحكم الله،
لما أمكننا أن نميز معانٍ المدحية ونحوه الوصفية، عن شاعر
كالنابغة وهو يعتذر إلى النعمان ويطلب منه العفو والصفح.

وهكذا نجد كعباً في كلّ شعره تقريباً يسير على السنن
التقليدي المرسوم، دون أي إخلال، بنهجه وصوته، ولكننا مع
ذلك لا نريد أن نظلم الرجل أو نبخسه حقه، لأنّه لم يستطع
أن يوجد تلك الفرادى البنائية المحببة في الشعر، فهو في
شعره ذاك كان أيضاً على قدرٍ كبير من الإجاده والإحاطة التامة
بتفاصيل الموصوف الظاهرة التي لم يحاول استبطان معانيها،
واكتفى منها بالرسم الخارجي لها، مختاراً كلّ العبارات التي
تواءم ذلك، وتساعد على إبراز الموصوف وإحضاره أمام مرأة
العين في خطوطٍ جذابة، حتى يبدو لك الشاعر نحاتاً أصيلاً يصنع
للموصوف تمثالاً جامداً يظهره لك بكل دقائقه وتفاصيله كما
هو، دون أن يلبسه ثوباً من المشاعر، أو يسكب فيه نغم
الحياة وصوتها الشجي المتحرّك، ويشير الدكتور فؤاد افرايم
البستانى إلى تلك الظاهرة فيقول: «إنما شعره في أكثره
تصوير، وتصویر دقيق يسمى إلى درجة عالية من الصناعة، بل
من الفن أحياناً، ولا عجب، فهو ابن زهير وتلميذه، وأحد
أفراد ذلك المذهب التصويري المادي الذي بدأ بأوس بن

حجر زوج أم زهير، وبلغ أوجه مع زهير والنابغة، وكان من ممثليه شاعرنا كعب والخطيئه كما قدمنا، وليس من حاجة بهذا المذهب إلى كثير من الشعور الرقيق السِّيَال، وإن كان الشعور يمدّه رونقاً وتشخيصاً وحياة تزيد في قيمته، إنما حاجته إلى الصبر في تتبع الموصوفات، واختيار القوافي، والى قوة الخيال أيضاً.

وسوءٌ بعد الذي سمعناه، أكان كعب في عداد شعراء المدرسة الأوسيّة، أم كان في غيرها، أو هو تأثر بأبيه أو بالنابغة أو بغيرهما من الشعراء، فهو في نظرنا شاعرٌ مكتمل، ولكنه لم يستطع أن يخرج عن إطار بيته التي ظلت تشدّه إليها بحبالٍ قويةٍ ونابتة، فنظم على منوال ما نظم معاصره، فكان واحداً منهم، تأثر بما تأثروا، وانتهج ما انتهجوا، بل وزراه في بعض الموضوعات كوصف الصحراء وطرقها وحيواناتها قد تفوق على أكثرهم؛ وكان أكثر دقةً وتفصيلاً، وأكثر اختياراً واستيفاءً وتهذيباً، وحسب كعب في هذا المجال، أنه صنّى شعره من الشوائب، وتنخل له أنساب الكلمات، وألم بموضوعه كل الإلام الذي ينقل الصور نقلأً لا غبار عليه ولا شبّهات، فكان تلميذاً بارعاً لأبيه، معترفاً بفضلـه، معتزاً بالسّير على منوالـه، يقول كعب في ذلك:

فإن تسأل الأقوام عنِي فابنني
 أنا ابن أبي سلمى على رغم من زعم
 أقول شبّهات بما قال عالماً
 بهنَّ ومن يشبه أباه فما ظلم
 وأشبهه من بين من وطيء الحصى
 ولم ينتزع عنِي شبهةٌ خالٍ ولا ابن عمٍ

لقد حفل ديوان كعب بقصائد متنوعة، ألمت بكلَّ
 الأغراض الشعرية في عصره، وهي قصائد استطاع كعب فيها
 أن يكون رساماً أو مصوّراً ينقل إليك عبر لغة جزلة متينة،
 وبعيدةٍ عن الضعف والركاكة، مشاهد من بيته الضاغطة التي
 فرضت عليه منحىً من القول، ومساراً إلى تغيير، وحسب
 كعب في هذا المجال أن يكون قد سلك لاحقاً في صحرائه،
 واستطاع أن يصل إلى القمة التي وصل إليها سالكوه، بل
 ويزيده فخراً على من تقدّمه أنه لم يكن أسيئر ذلك اللا حب
 ونهج المتعرّج في كلّ أموره ومشاغله، بل كان شاعراً إنساناً
 عرف أين يضع أقدامه، ولذلك لم يتوانَ قيد لحظةٍ عن سلوك
 لا حب الخير والهداية والإيمان، بعد تيقنه من صوابه وسلامة
 مسراه^(١).

(١) راجع فيها كتابنا حول بناء القصيدة. ديوان كعب بن زهير شرح ودراسة، د. مفيد محمد قبيحة، حيث استخدمنا أكثر ما أثبتنا.

لغته وأسلوبه

إن المطلع على أشعار كعب في ديوانه يجد لغة ترواح بين الغرابة والغلظة، وبين السلامة واللين، فهي تبدو شديدة وعرة قاسية في وصفه الصحراء وحيوانها وطرقها ومنازلها، لكنها كلما اقتربت من المشاعر وخصوصاً في غزلياته وحكمه المتفرقة وأمثاله وبعض معانيه الإسلامية، فإننا في هذه جميراً نشهد لغة مألوفة ومانوسة، هذبتها المشاعر، وصقلتها التجارب، وأخفى عليها الإسلام جدّةً وخلوداً.

أما أسلوب كعب، فيظهر كذلك أن الإسلام قد أحدث فيه بعض التغيرات، إذا مده بكثير من المعاني الجديدة التي كتب لها الخلود والبقاء، فهو في قصائده التي قالها بعد الإسلام يميل إلى الرقة واللين، بينما نراه في قصائده الجاهلية شديداً جافاً تبدو عليه غلظة الجاهلية وقوتها وضيق أفقها الذي يحصر الخيال والمشاعر في صور رتيبة ومجارات لا تسمح بالسرور والانطلاق.

وهذا التغيير الذي قلنا إنه أصاب أسلوب كعب أحياناً، فإنه لم يكن ليشكل تغييراً جذرياً، لأن كعب ظلَّ ملتزماً فيه

بالقيم الفنية التي ورثها عن أبيه ومدرسته الشعرية التي حولت
الشعر إلى صنعة تتطلب الكثير من الخبرة والروية والدرابة،
وهي صنعة في رأينا ليست متكلفة، ولا هي بعيدة عن الذوق
والعفوية والصدق في نقل الصور والمشاهد، لأنها تهدف إلى
تصفية الشعر وتنقيحة وتخليصه من الشوائب والسقطات، بل
هو في نظرنا استلهام لمعانٍ حديدة كتب لها الإسلام الحياة،
فظللت متداولةً بين الناس، وصارت مألوفة مستساغة في كلّ
عصر، يعكس تلك المعاني التي بقىت أميرة الصحراء،
وغمertia رمال الزمن، محرمتها نعمة التطور، وأضفت عليها
البعد والغرابة والشدة..

نهادق من شعره

هل حبل رملة: من البسيط

هل حبل رملة قبل البين مبتورٌ
أم أنت بالحلم بعد الجهل معدورٌ^(١)
ما يجمع الشوق إن دارُ بنا شحّت
ومثلها في تداني الدار مهجورٌ^(٢)
نشقى بها وهي داءٌ لو تصاقبنا
كما اشتفى بعياد الخمر مخمورٌ^(٣)
ما روضةٌ من رياض الحزن باكرها
بالنابت مختلف الألوان ممطورٌ^(٤)
يوماً بأتيب منها نشر رائحةٌ
بعد المنام إذا حب المعاطير^(٥)
ما أنس لا أنها والدموع منسربٌ
كانه لؤلؤ في الخذ محدورٌ^(٦)

(١) البين: المهرجان. المبتور: المنقطع.

(٢) شحّت: بعثت.

(٣) تصاقبنا: تدانيها، وعياد الخمر: أي العودة إليها.

(٤) الحزن: طريق بين المدينة وخير، والحزن الأرض الغليظة.

(٥) نشر رائحة: أي عبقها. والمعاطير: الذي من عاده التطيب.

(٦) منسرب: مذروف. ومحدور: منحدر.

لَمَا رَأَيْتُهُمْ زَمْتْ جِمَالَهُمْ
 صَدَقْتْ مَا زَعْمُوا وَالبَينْ مَحْذُور^(١)
 يَحْدُو بِهِنْ أَخْرُو قَادُورَةٌ حَذْرُ
 كَائِنُه بِجَمِيعِ النَّاسِ مُوتُور^(٢)
 كَائِنُ اظْعَانِهِمْ تَحْدِي مَقْبَةً
 نَخْلُ بِعَيْنِيْنِ مُلْتَفِيْ مَوَاقِير^(٣)
 غُلْبُ الرَّقَابِ سَقَاهَا جَدُولُ سَرَبُ
 أَوْ مَشْعُبُ مِنْ أَنْتِي الْبَحْرِ مَفْجُور^(٤)
 هَلْ تَبْلُغُنِي عَلَيَّ الْخَيْرُ ذَعْلَبَةً
 حَرْفُ تَرْتَلُ عَنْ أَصْلَاهَا الْكُور^(٥)
 مِنْ خَلْفِهَا قَلْصُنْ تَجْرِي أَزْمَتْهَا
 قَدْ مَسْهَنْ مَعَ الإِدْلَاجِ تَهْجِير^(٦)

(١) زَمْتْ: رَبِطَتْ. وَالْأَزْمَةُ: الْحِبَال.

(٢) الْقَادُورَةُ: النَّاقَةُ الَّتِي تَبْرُكُ نَاحِيَةً أُخْرَى وَتَنَافِرُهَا عَنْدِ الْحَلْبِ.

(٣) الْأَظْعَانُ: جَمْعُ ظَعْنَةٍ وَهِيَ الْمَرْأَةُ فِي الْمُوْدُجِ. وَعَيْنَيْنِ: اسْمُ مَكَانٍ.
وَمَوَاقِيرُ: كَثُرَ حَلْمُهَا.

(٤) غُلْبُ الرَّقَابِ: غَلَاظُهَا. وَالْمَشْعُبُ: الطَّرِيقُ. وَالْأَنْتِي: الْمَرْجُ وَالسَّلِيلُ.

(٥) الذَّعْلَبَةُ: النَّاقَةُ السَّرِيعَةُ. وَالْحَرْفُ: النَّاقَةُ الصَّلْبَةُ الصَّامِرَةُ. وَالْكُورُ:
الرَّحْلُ.

(٦) الْقَلْصُنْ: النُّوقُ الْفَتَيَّةُ. وَالْإِدْلَاجُ: سَرُّ النَّيلِ. وَالْتَّهْجِيرُ: سَرُّ الْمَاهِرَةِ.

يخبطن بالقوم أنصاءَ السَّرِيعِ وقد
 لاذت من الشمس بالظلِّ اليعافير^(١)
 قالوا تنحوا فمسوا الأرض فاحتولوا
 ظلاً بمنحرقٍ تهفو به المور^(٢)
 ظلوا كأنَّ عليهم طائراً علقاً
 يهفو إذا انسفرت عنه الأعاصير^(٣)
 لوجهةِ الريح منهم جانبُ سلبٍ
 وجانبُ يأكُفَ القدم مَضْبُورٌ^(٤)
 حتى إذا أبردوا قاموا إلى قلصٍ
 كأنهن قسيُ الشوحيط الزور^(٥)
 عواسلٌ كرعيل الرُّبَيد أفزعها
 بالسُّي من قانسٍ شلٌ وتنفير^(٦)

(١) أنصاء: هزال، والسريع: سيرٌ تشد به الخدمة فوق رسم العبر.
واليعافر: الصبي.

(٢) احتولوا: احتشوا، والمنحرق: المكان تخرق فيه الريح، أي تهب.
والمور: التراب تسفة الريح.

(٣) الطائر العلق: الواقع في الأشراك. يهفو: يطير. انسفرت: انكشفت.

(٤) السلب: السريع. والمضبور: المجتمع الخلق الأملى.

(٥) أبردوا: دخلوا في العني. الشواحيط: ضرب من الشجر تتخذ من عوده
القسيَّ والزور: الواحدة زوراء: أي الفوس المنقطة.

(٦) العواسل: المضرية في سيرها. والرعيل: الجماعة. والرَّبَيد: النعام القاتمة
اللون. والسُّي: موضع. والشل: العرد.

حتى سقى الليل سقى الجن فانغمست
 في جوزه إذ دجا الأكام والقور^(١)
 غطى النشار مع الأكام فاشتبها
 كلامها في سواد الليل مغمور^(٢)
 إنَّ عَلَيْاً لَمِيمُونَ نَقِيبَتَه
 بِالصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَفْعَالِ مَشْهُورٌ^(٣)
 صَهْرُ النَّبِيِّ وَخَيْرُ النَّاسِ مُفْتَخِرٌ
 فَكُلُّ مَنْ رَامَهُ بِالْفَخْرِ مُفْخُورٌ
 حَلَى الطَّهُورِ مَعَ الْأَمَيِّ أَوْلَاهُمْ
 قَبْلَ الْمَعَادِ وَرَبُّ النَّاسِ مَكْفُورٌ^(٤)
 مَقاومٌ لِطْفَاهُ الشَّرِكِ يَضُرُّ بِهِمْ
 حَتَّى اسْتَقَامُوا وَدِينُ اللهِ مَنْصُورٌ^(٥)
 بِالْعَدْلِ قَمَتْ أَمِينًا حِينَ خَالَفَهُ
 أَهْلُ الْهُوَى وَذُوو الْأَهْوَاءِ وَالْزَّوْرِ^(٦)

(١) جوزه: وسطه. ودوا: أظلم، والقور: الجبل المرتفع في السماء.

(٢) النشار: ما ارتفع من الأرض.

(٣) النقيبة: السجدة والطبع.

(٤) المكفور: المحجوب، والمستور.

(٥) استقاموا: أي ثابوا إلى رشدهم.

(٦) في البيت إقواء، وهو اختلاف حركة الروي عما قبله وبعده.

يَا خَيْرَ مَنْ حَمَلَتْ نَعْلَاهُ قَدْمًا
بَعْدَ النَّبِيِّ لَدِيهِ الْبُغْيَ مَهْجُورٌ
أَعْطَاكَ رَبِّكَ فَضْلًا لَا زَوَالَ لَهُ
مِنْ أَيْنَ أَنْسَى لَهُ الْأَيَّامُ تَغْيِيرٌ

.

ألا أسماء صرمت الحبالا : من الوافر

ألا أسماء صرمت الحبالا
فأصبح غادياً عزم ارتحالا^(١)
و ذات العرض قد تأتي إذا ما
أرادت صرم خلتها الجمالا^(٢)
تعاونها الوشاة فغيروها
عن الحال التي في الدهر حالا^(٣)
ومن لا يفتا الواشين عنه
صباح مساء ينحوه الخبالا^(٤)
فل طلابها وتعز عنها
بناجية كان بها خيالا^(٥)

(١) صرمت: قطعت.

(٢) ذات العرض: أي ذات الحب والشرف، يريد أنها إذا هجرت ابنت للهؤنة موضعاً.

(٣) تعاورها: اكتنفها.

(٤) يفتا: يردد. والخيال: الفساد في العقل والرأي.

(٥) سل طلابها: تعز عنها. والناجية: السريعة من النون.

أموٰنٰ ما تملٰ وَمَا تُشْكِي
 إِذَا جَشَّمْتَهَا يَوْمًا كَلَالًا^(١)
 فَابْلُغْ إِنْ عَرَضْتَ بَنَا رُسُولًا
 أَبَا الْمُمْلُوكِ إِنَّ لَهُ جَلَالًا^(٢)
 أَمْوَدٌ خَلْفَكُمْ هَرْمًا وَلَمَّا
 تذوقُوا مِنْ عَدَاوَتِنَا وِيَالًا^(٣)
 وَلَمَّا تَفْعَلُوا إِلَّا وَعِيدًا
 كَفِى بِوَعِيدِكُمْ لَهُمْ قَتَالًا^(٤)
 وَعِيدٌ تَخْرُجُ الْأَرْحَامُ مِنْهُ
 وَيَنْقُلُ مِنْ أَمَاكِنْهَا الجَبَالًا^(٥)
 خَفِيفُ الْغَيْثٍ تَعْجَثُ مِنْ رَأَءِ
 مُخْيَلَتِهِ وَلَمْ تَقْطُرْ بِلَالًا^(٦)

(١) الأمون: الأمينة السير التي لا يخشى عثارها. والكلال: الاعباء.

(٢) عرضت بنا: مررت بنا وجزت.

(٣) المودي: المالك. والويال: سوء العاقبة.

(٤) الوعيد: التهديد.

(٥) تخرج الأرحام: تضع ذوات الحمل لغير ميعادها.

(٦) مخيلته: رؤياه. والبلال: القطرة، المعنى إنه غيث يحسب الناظر مطرًا إلا أن الريح تفرقه فلا يمطر قطرة واحدة.

شبانٌ وشبابٌ: من الوافر

نفِي أهلُ الْحَبْلَقِ يَوْمَ وَجِ
مُزِينَةُ جَهْرَةٍ وَيَنْوُ خَفَافٍ^(١)
صَبَحَنَاهُمْ بِالْأَلْفِ مِنْ سُلَيْمٍ
وَالْأَلْفِ مِنْ بَنِي عُثْمَانَ وَافٍ^(٢)
حَدَّوَا أَكْتَافَهُمْ ضَرْبًا وَطَعْنَةً
وَرَمَيْاً بِالْمَرِيشَةِ الْلَّطَافِ^(٣)
رَمَيْنَاهُمْ بِشَبَانٍ وَشَبَابٍ
تَكْفُكْ كُلَّ مُمْتَنَعِ الْعَطَافِ^(٤)
نَرَى بَيْنَ الصَّفَوفِ لَهُنَّ رَشْقَةً
كَمَا اِنْصَاعَ الْفُوقَ عَنِ الرَّصَافِ^(٥)

(١) الْحَبْلَقُ: الْقَنْمُ الصَّغِيرُ. وَوَجِ: الْلَّطَافُ.

(٢) الْوَافِي: النَّامُ.

(٣) حَدَّوَا: اِتَّبَعُوا. وَالْمَرِيشَةُ: السَّهَامُ.

(٤) الْعَطَافُ: الْوَاحِدُ عَطَافٌ، وَهُوَ الْجَنْبُ، يَقَالُ: مَا لَعَطَافِيَهُ، أَيْ نَكْبَرٌ.

(٥) الْفُوقُ: مَوْقِعُ الْوَرَزِ منْ رِيشِ السَّهَامِ. وَالرَّصَافُ: عَقبٌ يَنْذَدُ عَلَى الْفُوقِ.

ترى الجرَّادُ الجيادَ تلوَّحُ فيهم
 بِأَرْمَاحٍ مقدمةُ الشِّقافِ^(١)
 وَرَحْنَا غَانِمِينَ بِمَا أَرْدَنَا
 وَرَاحُوا نَادِمِينَ عَلَى الْخَلَافِ^(٢)
 وَاعْطَيْنَا رَسُولَ اللهِ مَنَا
 مَوَاثِيقاً عَلَى حُسْنِ التَّصَافِي^(٣)
 فَجَزَنَا بِبَطْنِ مَكَّةَ وَامْتَنَعْنَا
 بِتَقْوَى اللهِ وَالبيْضِ الْخَفَافِ^(٤)
 وَحَلَّ عَمودُنَا حَجَرَاتُ نَجَدٍ
 فَآلَبَهُ فَالْقُدُوسُ إِلَى شَرَافِ^(٥)
 أَرَادُوا الْلَّاتِ وَالْعَزَّ إِلَهَنَا
 كَفِيَ اللهُ دُونَ الْلَّاتِ كَافِ^(٦)

(١) الجُرَّاد: القصيرة الشعر من الخيل. والشقاف: حديبة يقعُ بها الحديد المعرج.

(٢) الخلاف: أراد به مخالفة الرسول عليه الصلاة والسلام.

(٣) الموثيق: المعهود.

(٤) جزنا: قطعنا. والبيض: السيف.

(٥) العمود: خباء طويلاً يقرب على الأعمدة فيقال لأهله عليكم بأهل ذلك العمود. وشرف: ماء بنجد.

(٦) اللات والعزى: من أصنام العرب.

ألا ليت سلمي: من الطويل

ما برح الرسمُ الذي بين حنجرٍ
وذهفة حتى قبل هل هو نازح^(١)
وما زلت ترجو نفع سعدي وؤدها
وتبعدي حتى أبيض منك المائج^(٢)
وحتى رأيت الشخص يزداد مثله
إلبه وحتى نصف راسي واضح^(٣)
علا حاجبي الشيب كأنه
طباء جرت منها سنبح وبارح^(٤)
فأصبحت لا أبتاع إلا مؤامراً
وما ببع من بتابع مثلي رابح^(٥)

(١) الرسم: الأنف، وحنجر: مكان. وذهفة: مكان أيضاً. والنازح: المرتخل.

(٢) المائج: شعر جانبي الرأس.

(٣) الواضح: من الوضع وهو الشيب، يزيد أنه كبر وضعف بصره.

(٤) السانح: ما مر عن يمينك. والبارح: ما مر عن شمالك، وهو للبنين والشذوذ.

(٥) المؤامر: المشارون.

ألا لِيْت سَلْمِي كُلْمَا حَان ذَكْرَهَا
 تَبْلُغُهَا عَنِي الرِّيَاحُ النَّوَافِعُ^(١)
 وَقَالَتْ تَعْلَم إِنَّ مَا كَانَ بِيْنَنَا
 إِلَيْكَ آدَاء إِنْ عَهْدُكَ صَالِحٌ^(٢)
 جَمِيعاً تَؤْذِيَة إِلَيْكَ أَمَانِتِي
 كَمَا أَدَيْتُ بَعْدَ الْفَرَازِ الْمَنَاثِعَ^(٣)
 وَقَالَتْ تَعْلَم إِنَّ بَعْضَ حَمْوَتِي
 وَبِعْلِي غَضَابُ كُلُّهُمْ لَكَ كَاشِحٌ^(٤)
 يَحْذُونَ بِالْأَيْدِي الشَّفَارِ وَكُلُّهُمْ
 لِحَلْقِكَ لَوْ يُسْطِيعُ حَلْقَكَ ذَابِحٌ^(٥)
 وَهَرَزَةُ أَصْعَانِ عَلَيْهِنَّ بِهِجَةَ
 طَلْبَتْ وَرِيعَانَ الصَّبَابِيِّ جَامِعٌ^(٦)
 فَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْيَ كُلُّ حَاجَةٍ
 وَسَعَ رَكْنَ الْبَيْتِ مِنْ هُوَ مَاسِحٌ^(٧)

(١) النَّوَافِعُ: الْيَتَمُّ.

(٢) تَعْلَمُ: بِمِنْيٍ أَعْلَمُ. وَالْآدَاءُ: الْمُؤْدِي إِلَيْكَ.

(٣) الْفَرَازُ: فَلَةُ الْلَّبَنِ. وَالْمَنَاثِعُ: الْوَاحِدَ مُبَحَّثَةٌ وَهِيَ الشَّاةُ أَوُ النَّاقَةُ.

(٤) الْحَمْوَةُ: أَقْارِبُ الرَّزْوَجِ. وَالْكَاشِحُ: الْمُبَغْضُ.

(٥) يَحْذُونَ: أَيُّ يَسْنُونَ وَيَشْحُذُونَ. وَالشَّفَارُ: حَدَّ السَّيْفِ.

(٦) الْأَصْعَانُ: النَّاءُ فِي هَوَادِجَهِنَّ. وَالْجَامِعُ: الْذِي يَجْمِعُ بِهِ عَنْ رِزَانَتِهِ.

(٧) مِنْيُ: فِي درَجِ الْوَادِيِّ الَّذِي يَنْزَلُهُ الْمَحَاجُ وَيَرْمِي فِيهِ الْجَهَارُ مِنْ الْحَرَمِ.

وشدّت على حُدب المهاري رحالها
 ولا ينظر الفادي الذي هو رائح^(١)
 فقلنا على الهُوج المراميل وارتمت
 بهن الصهارى والصماد الصحاصح^(٢)
 نزعنا بأطراف الأحاديث بينما
 ومالت بأعناق المطئي الأباطع^(٣)
 وطررت إلى قوداء قاد تليلها
 مناكبها واشتد منها الجوانح^(٤)
 كأنني كسوت الرحل جونا رباعياً
 تضمنه وادي الرجا فالآفایع^(٥)

(١) الخدب: الواحد أحدب وحدباء. والمهاري: منسوبة إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن وهي سريعة لا تعادل سرعتها. والفادى: الرايح غداة أبي في الصباح. والرايح: أبي السائر في المساء.

(٢) فلننا: من القائلة وهو النوم في منتصف النهار. والمراسيل: السريعة الجري. والصهاد: ما غنظ من الأرض. والصحاصح: ما استوى من الأرض وانبسط.

(٣) نزعنا: أخذنا. والأباطع: جمع أبطع وهو مكان متسع منبسط يسل فيه الماء فيخلف التراب والحمى.

(٤) القوداء: الناقة الطويلة العنق. والتليل: العنق. وقداد: تقدم. والجوانح: أصلاح الصدر.

(٥) الجون: الحمار الوحشى. والرباعي: الذي سقطت رباعيته وهي السن التي بين الثنية والناب، والرجا والأفایع: موضعان.

مُمَرَا كعْقَدَ الْأَنْدَرِيَ مَذْمَجاً
 بَدَا قَارَحُ مِنْهُ وَلَمْ يَبْدُ قَارَحُ^(١)
 كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبَاءِ بَطَانَةَ
 تَفَرَّجَ عَنْهَا جِبَاهَا وَالْمَنَاصِحُ^(٢)
 أَخْوَ الْأَرْضِ يَسْتَخْفِي بِهَا غَيْرَ أَنَّهُ
 إِذَا اسْتَافَ مِنْهَا قَارَحًا فَهُوَ صَائِحٌ^(٣)
 دُعَاهَا مِنَ الْأَمْهَادِ أَمْهَادَ عَامِرٍ
 وَهَاجَتْ مِنَ الشُّعُورِيِّ عَلَيْهِ الْبَوَارِحُ^(٤)

(١) المُمَرَّ: الذي احْكَمَ فتْلَهُ. والأندرِيَّ: منسوب إلى أندر تَعْمَلُ فيَها الحِبَالُ.
 والمِنْعِجُ: المحْكُمُ الْفَتْلُ. والقارَحُ: النَّابُ الذِّي يَنْبَيُ بَعْدَ سُقُوطِ السَّنَنِ
 الْرِّبَاعِيَّةِ.

(٢) يقال: إنما ارَادَ أَنْ عَلَيْهِ بِيَاضاً مِنْ لَوْنِهِ قَدْ جَلَ سَرَانِهِ وَبَطَنِهِ.

(٣) استَافَ: شَمَّ. والقارَحُ: الْحَامِلُ.

(٤) هَاجَتْ: اشْتَدَّ حَرْمَهَا. والشُّعُورِيُّ: الْكَوْكَبُ الذِّي يَطْلُعُ فِي الْجُوزَاءِ،
 وَطَلُوعُهُ فِي شَدَّةِ الْحَرَّةِ. والبَوَارِحُ: الرِّبَاحُ الْمَحَارَةُ فِي الصِّيفِ.

ثبات المصادر والمراجع

ابن سلام الجمعي - طبقات الشعراء

ابن قتيبة - الشعر والشعراء

الأصبهاني - الأغاني

المسعودي - مروج الذهب

الطبرى - تاريخ الأمم والملوك

ابن خلدون - المقدمة

ياقوت الحموي - معجم البلدان

طه حسين - في الأدب الجاهلي

أحمد أمين - فجر الإسلام

علي فاعور - ديوان كعب

مفید قمیحة - شرح ودراسة دیوان کعب

بطرس البستاني - أدباء العرب

شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي

عبد العزيز عتيق - علم العروض والقافية

محمد حسين - الهجاء والهجاؤون

صلاح الدين المنجد - جمال المرأة عند العرب

محمود الألوسي - بلوغ الأربع



فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	١ - المقدمة
٥	٢ - لمحة تاريخية عن ديار العرب قبل الإسلام
١٠	٣ - أحوال العرب الاجتماعية في الجاهلية
١٠	٤ - شخصية البدوي وأخلاقه
١٢	٥ - الحياة العقلية
١٣	٦ - سيد القبيلة
١٤	٧ - المرأة
١٨	٨ - الغزوات
٢٠	٩ - المعايش
٢١	١٠ - الأديان
٢٣	١١ - المعتقدات
٢٣	١٢ - العلوم والمعارف
٢٥	١٣ - لغة العرب وأدابهم
٢٥	١٤ - اللغة
٢٦	١٥ - الكتابة

١٦ - الأدب	٢٦
١٧ - الشعر الجاهلي	٢٩
١٨ - مميزات الشعر الجاهلي	٢٩
١٩ - صدر الإسلام - لمحات تاريخية	٣٥
٢٠ - كعب بن زهير	٣٨
٢١ - مميزات الشعر المخضرم	٣٨
٢٢ - كعب وحياته	٤١
٢٣ - كعب في الإسلام	٤٤
٢٤ - أشعاره	٦١
٢٥ - آثاره	٧٦
٢٦ - مميزاته	٧٧
٢٧ - منزلته	٧٨
٢٨ - شعره الحكمي	٧٩
٢٩ - الفخر والحماسة في شعره	٨٥
٣٠ - المدح في شعره	٩٣
٣١ - الهجاء في شعره	٩٨
٣٢ - الرثاء في شعره	١٠٦
٣٣ - الغزل في شعره	١١٠
٣٤ - بناء القصيدة	١١٥
٣٥ - لغته وأسلوبه	١٢٨

٣٦ - نماذج من شعره	١٣١
٣٧ - ثبت المصادر والمراجع	١٤٧
٣٨ - فهرس الموضوعات	١٤٩



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

رابط بديل lisanerab.com